المحاضرة الرابعة.

عنوان المحاضرة: العصر العباسي الثاني: (عصر الضعف والتراجع) (232 - 656 هـ / 847 - 1258 م).

1- التقسيم التاريخي لهذا العصر حسب الفئة المسيطرة.

بدأ العصر العباسي الثاني أو عصر الضعف كما يسميه البعض بوصول الخليفة المتوكل على الله إلى سدة الحكم عام 232هـ / 944 م واستمر حتى سقوط الخلافة العباسية في بغداد على يد المغول عام 656 ه / 1258م، وفي هذه الفترة أصبحت الخلافة مجرد رمز، ليس للخليفة حول ولا قوة، فلم يتعد ملكة في معظم الأحيان مدينة بغداد، وليس له من الأمر إلا الخطبة والسكة والاستعراضات في المناسبات الدينية، بينما السلطة الفعلية بأيدي قادة القوات العسكرية من أتراك أو بويهيين.

ويمكن تقسيم العصر العباسي الثاني إلى عدة فترات حسب الفئة المسيطرة عل دولة الخلافة كما يلي:

*** عصر النفوذ التركي (232-334 هـ = 847 -945 م):**

وسمي بهذا الاسم لأن قادة الجيش الأتراك كانوا هم المسيطرون على دولة الخلافة، بحيث لا يقطع الخليفة أمراً دون استشارتهم، بل كانوا يتحكمون في منصب الخلافة فيولون من يشاءوا ويعزلون من شاءوا.

*** عصر النفوذ البويهي (334-447 هـ = 946-1055م)**

سيطر الجند البويهيون على دولة الخلافة، وفقد الخليفة في هذه الفترة كل صلاحياته وأصبح ألعوبة في أيدي سلاطين بني بوية الفُرس.

*** عصر النفوذ السلجوقي (447-656 هـ =1056-1258م):**

وهنا سيطر الأتراك السلاجقة على الخلافة، وأصبح سلاطينهم يملكون من النفوذ أضعاف ما يملكه الخليفة العباسي المغلوب على أمره.

ولشدة سيطرة هذه العناصر العسكرية (أتراك أو بويهيين فُرس) على الدولة العباسية في العصر الثاني قسّم بعض المؤرخين المحدثين تاريخ الدولة العباسية خلال هذا العصر إلى ثلاث فترات هي: فترة نفوذ الأتراك، فترة النفوذ البويهي، فترة السيطرة السلجوقية.

2- مميزات العصر العباسي الثاني:

يمكن أن نعتبر العصر العباسي الثاني الذي امتد أكثر من أربعة قرون بداية عصر الضعف الذي أصاب الدولة الإسلامية، لأنه امتاز بعدة ميزات منها:

- **ضعف الخلفاء:**

من أهم ما تميزت به هذه الفترة من التاريخ العباسي ما تناقله المؤرخون القدماء والمحدثون من ضعف خلفاء هذه الفترة، حتى أصبح الخليفة ألعوبة بيد الفئات العسكرية المسيطرة ولم يبق له من الأمر شيئاً، ففقد منصب الخلافة ما كان له من الهيبة في نفوس المسلمين، ويعزوكثير من المؤرخين ما جرى للخلافة إلى ضعف شخصية الخلفاء وانصرافهم إلى اللهو والترف، ثم إلى

ظهور الحركات الاستقلالية في العالم الإسلامي ،ولا نستطيع تعميم الضعف على جميع الخلفاء فقد ظهر خلفاء كانوا على جانب كبير من قوة الإرادة وصفاء الشخصية حاولوا أن يعيدوا للخلافة عزتها وقوتها.

*** السيطرة العسكرية على مركز الخلافة:**

كان العصر العباسي الأول قويًا فلم تقم فيه سيطرة عسكرية أو زعامة ذات قوى سياسية تحكم بها منطقة معينة، وإذا ما حدث ووجدت قوة عسكرية أو زعامة ما فقد كان يقضى عليها سريعا كما حدث لعبد الله بن علي، وأبي مسلم الخرساني، ولم تقم في ذلك العصر سوى دولة واحدة هي دولة الأغالبة في تونس.

وعندما كثر الجند الأتراك في الدولة العباسية في العصر الثاني وأصبحوا هم المتنفذون في الدولة، وسيطروا على مركز الخلافة، وأصبح الحكم بالسيف لا بالرأي، والتنفيذ بالسوط لا بالحكمة والناس مجبرون على الخضوع للحاكم بالحق أو بالباطل، وفقد الناس حريتهم، ولم يأمنوا على أرواحهم وأموالهم وأعراضهم.

واستمرت سيطرة الجند الأتراك قرنًا من الزمن 247-334 هـ، وظهر بعد ذلك نفوذ الجنود الفُرس من آل بويه الشيعة، ولم يختلف الأمر كثيراً عن الوضع السابق بل إن الوضع ازداد سوءا، فعمت الفوضى بشكل اكبر، وانتشر الفساد والمنكرات على نطاق أوسع وكثر الخلاف بين السنة و الشيعة، وظهرت إمارات ودول شبة متطرفة، ودويلات مستقلة أخرى في شرق العالم الإسلامي.

واستمرت سيطرة الجند الفرس أكثر من مئة سنة 334-447 هـ فظهر نفوذ السلاجقة الأتراك الذين جاءوا من بلاد ما وراء النهر فسيطروا على البلاد ودخلوا بغداد وقضوا على نفوذ البويهيين، فكان انقلاباً عسكرياً على حكم عسكري سابق فلم يتغير الوضع كثيراً وإن تحسن نسبياً ،لأن السلاجقة كانوا من المسلمين السنة فقضوا على بعض الفرق الضالة.

- **نشوء الدويلات:**

مضي العصر العباسي الأول ولا تزال للمسلمين دولة واحدة، وجميعهم يتبع لخليفة واحد ,وإن وجدت بعض الإمارات التي لا تقر للخليفة بالأمر وتختلف معه قليلاً أو كثيرا، ولكن هذه الإمارات كانت قليلة ومحصورة في غرب الدولة الإسلامية مثل: إمارة بني أمية في الأندلس، ودولة الأغالبة في تونس، ودولة الأدراسة في فاس ،ودولة الرستميين بتيهرت.

أما خلال العصر العباسي الثاني فقد نشأت دويلات في شرق الدولة الإسلامية، ولا شك أن سكان تلك المناطق من الترك أو الفرس هم الذين أنشؤوا هذه الدويلات، فقامت العديد منها مثل: الطاهرية، والصفارية، والسامانية والغزنوية وغيرها.

كذلك زادت الدول المستقلة في مصر وبلاد الشام، ومنها الطولونية والإخشيدية، ودولة بني حمدان في الموصل وحلب، والدولتين الزنكية والأيوبية.

وشهد العصر العباسي الثاني قيام أكثر من خليفة مسلم في آن واحد، فقد قامت سنة 297 هـ الخلافة الفاطمية في المغرب ثم امتدت إلى مصر، ثم ظهرت الخلافة الأموية في الأندلس سنة 316هـ فأصبح في الدولة الإسلامية ثلاثة خلفاء في وقت واحد.

وأخيراً يمكن القول: إن وجود هذه الدويلات الإسلامية المتعددة يعود إلى الضعف الذي أصاب الدولة العباسية في العصر الثاني، وإن وجود هذه الدويلات قد زاد من ضعفها ،أو هو سبب من أسباب هذا الضعف.

- **ظهور اللهو والترف:**

نتيجة للضعف والانقسام الذي أصاب الدولة العباسية خلال العصر الثاني توقفت الفتوحات الإسلامية، ولم يقم المسلمون بمهمتهم الكاملة في الحياة وهي نشر الإسلام، وانصرفوا إلى حياتهم الخاصة: فمنهم من انصرف إلى تجارته ينميها وكان من بين هؤلاء التجار من استفاد المسلمون من ثروته، بل وساهم بعضهم في نشر الإسلام في بقاع العالم المختلفة، ومن المسلمين من انصرف إلى أرضة فأحياها وعمرها فخدم نفسه بما حصل عليه من ثروة وخدم المسلمين فقدم لهم خيرات الأرض وبركاتها، ومن المسلمين من اتجه إلى العلم فنهل منه ما شاء الله وساهم في تقدم العلم ونشره، فترجمت علوم السابقين وأُضيفت عليها إضافات واسعة، وساهم المسلمون في تطور العلوم فظهر علماء عباقرة تسابق الحكام لضمهم إلى بلاطهم والاستفادة منهم وشجعوهم وأسسوا لهم المكتبات، وشيدوا لهم دور العلم، وقدموا لهم الدعم والعون، فأصبح مركز الخلافة وعواصم الدويلات الإسلامية مراكز إشعاع للعلم والمعرفة. وفي الوقت نفسه انصرف بعض المسلمين إلى ترفهم ولهوهم وعاشوا في دوامة الحياة الدنيا غير عابئين بشيء، حتى طمع فيه الأعداء وكانت نهايته على يد المغول.

- **ظهور الحركات الباطنية:**

هي حركات سياسية المنشأ هدفها القضاء على الإسلام بأية وسيلة، ولا شك أن الباعث لهذه الحركات الباطنية جماعات دينية قضى الإسلام على نفوذها أو على دولها كاليهود والنصارى والمجوس.

وقد بدأت الحركات الباطنية في وقت مبكر، ولكنها كانت ضعيفة محدودة الأثر لقرب عهد الناس بعصر النبوة والصحابة، ولوجود الوعي الإسلامي عند المسلمين ومع مرور الزمن بدأ هذه الحركات تجد من يستمع إلى مبادئها وأفكارها، واتخذت هذه الحركات كل وسيلة لتجميع الناس حولها سواء كانت هذه الوسائل شريفة أم لا، حتى أن بعض هذه الحركات ادعت النسب إلى آل بيت النبي صلى الله عليه وسلم، وبعضها استخدم النساء والأموال كوسيلة لبلوغ هدفها.

وجدت هذه الحركات الباطنية هدفها في الشباب والمراهقين، وفي طبقات المجتمع الفقيرة المعدمة كالمزارعين والصناع والزنج وطبقات الرقيق فتفشت بينهم وعملت على نشر فسادها بين مختلف طبقات المجتمع الإسلامي.

وقويت شوكة بعض هذه الحركات الباطنية كالإسماعيلية والقرامطة والحشاشين وغيرهم وأصبحت من القوة والجبروت حتى أشغلت دولة الخلافة أو الدويلات الإسلامية المختلفة فترة

طويلة من الزمن، وأهدرت طاقات المسلمين ومواردهم المالية في التصدي لها ومقاومة فسادها، ومما زاد الأمر سوءاً أن تعاونت بعض هذه الحركات مع أعداء المسلمين من المغول والصليبيين وغيرهم.

وخلاصة القول أن هذه الحركات الباطنية كانت معول هدم في المجتمع الإسلامي، وسبباً من أسباب ضعفه وانهياره.

- **الغزو الخارجي للعالم الإسلامي:**

قُدر للعصر العباسي الثاني أن يشهد غزوين خارجيين على أراضي العالم الإسلامي كان لهما أكبر الأثر في تفكك وحدة المسلمين وإضعاف شوكتهم، والحد من نشاطهم الحضاري وهما الغزو الصليبي والغزو المغولي.

جاءت الحملات الصليبية على ديار المسلمين كرد فعل من الدول الأوربية إثر الانتصارات التي حققها المسلمون على الدولة البيزنطية وانتزاع ممتلكاتها منها، فجمعت أوروبا الصليبية جيوشها وهاجمت بلاد المسلمين في حملات عنيفة متتالية بهدف القضاء على الإسلام وسحق المسلمين، وبدأت هذه الحملات في القرن الحادي عشر الميلادي واستمرت حوالي قرنين من الزمان نجح الصليبيون خلالها في احتلال بيت المقدس وإقامة بعض الإمارات الصليبية في بلادنا، وعمّ الخراب والدمار ديار المسلمين وارتكب الصليبيون الجرائم وانتهكوا الحرمات، واتلفوا الممتلكات، وأخيراً قيض الله للمسلمين من الأبطال أصحاب الهمم العالية والأيمان العميق كنور الدين زنكي وصلاح الدين الأيوبي وبعض سلاطين المماليك فتمكنوا من هزيمة الصليبين وتحرير المقدسات، وأخرجوا الغزاة في ديار المسلمين.

وفي الوقت الذي كان فيه الصليبيون في حالة احتضار نشأت قوة مخيفة أخرى شرق العالم الإسلامي فاجتاحت بلاد المسلمين كإعصار مدمر لا يقف أمامه شيء، تلك هي قوة المغول الوثنيين فخربوا البلاد الإسلامية وسفكوا دماء الأبرياء دون رحمة او شفقة، ولم تستطع جيوش الدويلات الإسلامية أن تقف في وجههم فلاذت بالفرار وتفرقت في البلاد واستطاع المغول دخول بغداد والاستيلاء عليها وقتل الخليفة العباسي سنة 656 هـ .

المحاضرة الخامسة.

عنوان المحاضرة: عصر نفوذ الأتراك (232 - 334هـ / 847 - 945م)

كان المأمون أول من استخدم الأتراك وقربهم، ولكنهم كانوا محدودي العدد والنفوذ في عهده، فلما تولى الخليفة المعتصم الحكم جعلهم عنصرًا أساسيا في جيشه، وبلغ عددهم بضعة عشر ألفًا، وكانوا تحت سيطرة الخليفة. وبدأ نفوذ الأتراك يتزايد في عهد الواثق، ثم ازداد حدة واتساعًا في عهد الخليفة المتوكل

ويمتد عصر نفوذ الأتراك إلى ما يزيد قليلاً على قرن من الزمان، تعاقب خلاله على كرسي الخلافة ثلاثة عشر خليفة هم:

المتوكل على الله جعفر بن المعتصم 232 – 247 هـ / 847 – 861م
المنتصر بالله محمد بن المتوكل 247 – 248 هـ / 861- 862م
المستعين بالله أحمد بن المعتصم 248 – 252 هـ / 862- 866م.
المعتز بالله محمد أبو عبد الله بن المتوكل 252 – 255 هـ / 866 – 869م.
المهتدى بالله محمد بن الواثق بن المعتصم 255 – 256 هـ / 869 – 870م.
المعتمد على الله أحمد بن المتوكل بن المعتصم 256 – 279 هـ / 870 – 892م.
المعتضد بالله أحمد بن الموفق طلحة بن المتوكل 279 – 289 هـ / 892 – 902م.
المكتفي بالله أبو محمد على بن المعتضد 289 – 295 هـ / 902 – 908م.
المقتدر بالله أبو الفضل جعفر بن محمد 295 – 320 هـ / 908 – 932م.
القاهر بالله أبو منصور محمد بن المعتضد 320 – 322 هـ / 932 – 934م.
الراضي بالله أبو العباس محمد بن المقتدر بن المعتضد 322 – 329 هـ / 934-941م.
المتقى لله أبو إسحاق إبراهيم بن المقتدر 329 – 333 هـ / 941 – 945م.
المستكفي بالله أبو القاسم عبد الله بن المكتفي 333- 334 هـ / 945 – 946م.

- **المتوكل على الله:**

تولى الخلافة في ذي الحجة سنة 231 هـ = 847م، وكان عهده بداية حقبة الضعف والتدهور، وتفكك بنيان الخلافة العباسية

ورغم أن المتوكل: كان قوى الشخصية، وافر الهيبة فإنه لم يستطع أن يضع حدا لاستفحال النفوذ التركى في عهده، الذي كان له دور في توليته الخلافة بعد أن كادت البيعة تتم لمحمد بن الواثق، وكان غلامًا

وقد نجح المتوكل في البداية في التخلص من أخطر العناصر التركية في عهده، وهو إيتاخ الذي استفحل خطره حتى إنه همَّ يومًا بقتل الخليفة المتوكل حين تبسَّط معه في المزاح، لكن الخليفة نجح في التخلص منه سنة 235هـ = 849م، كما عزم على التخلص من قادة الأتراك ووجوههم، مثل وصيف وبُغا، إلا أنهم استغلوا ما بينه وبين ابنه وولى عهده محمد المنتصر من خلاف وجفوة ودبروا مؤامرة انتهت بقتل المتوكل ووزيره الفتح بن خاقان في الخامس من شوال سنة 247هـ = 861م، وبايعوا ابنه المنتصر خليفة

وقد استطاع المتوكل في عهده أن يظفر بمكانة عظيمة في قلوب جماهير المسلمين، حين منع النقاش في القضايا الجدلية التي أثارها المعتزلة، مثل قضية خلق القرآن، كما رد للإمام أحمد بن حنبل اعتباره وجعله من المقربين إليه، بعد أن اضطُهد في عهد المأمون والمعتصم والواثق؛ لعدم إقراره القول بخلق القرآن، كما أمر المتوكل الفقهاء والمحدِّثين أن يجلسوا للناس ويحدثوهم بالأحاديث التي فيها رد على المعتزلة فأثنى الناس عليه، حتى قالوا: الخلفاء ثلاثة: أبو بكر الصديق قاتل أهل الردة حتى استجابوا له، وعمر بن عبد العزيز رد مظالم بنى أمية، والمتوكل محا البدع وأظهر السنة.

.المنتصر بالله:

تولى الخلافة في اليوم الذي قُتل فيه أبوه، وذلك في شوال سنة 247هـ / ديسمبر سنة 861م، و عمره ستة وعشرون عامًا. وحاول التصدي للنفوذ التركي بكل حزم، وصار يسب الأتراك ويقول: " هؤلاء قتلة الخلفاء " ورغم أن المنتصر بالله كان وافر العقل قوى الشخصية فإن الأتراك احتالوا على قتله، فأعطوا طبيبه ابن طيفور ثلاثين ألف دينار، ففصده بمبضع مسموم فمات، وكان ذلك في ربيع الآخر سنة 248هـ / جوان سنة 862م بعد حكم دام ستة أشهر فقط، ويروى أنه حينما احتضر، قال لأمه " يا أماه ذهبت منى الدنيا والآخرة، عاجلت أبى فعوجلت." ومن مآثر المنتصر بالله، خلال فترة حكمه القصيرة، إحسانه إلى العلويين، وإزالته عنهم ما كانوا فيه من خوف وضيق في عهد أبيه المتوكل.

- **المستعين بالله:**

هو أحمد بن المعتصم، تولى الخلافة في السادس من ربيع الآخر سنة 248هـ / جوان سنة 862م، وعمره ثمانٍ وعشرون سنة، فعقب وفاة المنتصر اجتمع الأتراك بزعامة بُغا الصغير وبُغا الكبير، وقرروا عدم تولية أحد من أولاد المتوكل الخلافة، خوفًا من انتقامه منهم، وبايعوا أحمد بن المعتصم، الملقَّب بالمستعين بالله، و كان من الطبيعي ألا يكون للمستعين بالله مع

الأتراك أمر ولا نهى، ولم يمضِ وقت طويل حتى غضب عليه الأتراك وقرروا خلعه ومبايعة المعتز بالله محمد بن المتوكل؛ فاشتعلت الحرب بين أنصار المستعين وأنصار المعتز، وانتهت بالقبض على المستعين وقتله في سجنه في شوال سنة 251 هـ / ديسمبر سنة 866م.

و قد شهدت خلافة المستعين بالله قيام الدولة العلوية بطبرستان سنة 250هـ / 864م. ،على يد الحسن بن زيد العلوى الملقب بالداعى الكبير، واستمرت هذه الدولة حتى سنة 316هـ / 928م

- **المعتز بالله محمد بن المتوكل:**

بويع له بالخلافة في شوال سنة 251 هـ = ديسمبر سنة 866م، وعمره تسعة عشر عامًا، وقد استضعفه الأتراك وطلبوا منه مالاً فاعتذر لهم بفراغ بيت المال، فثاروا عليه وضربوه ومزقوا ملابسه، وأقاموه في الشمس، فكان يرفع رجلاً ويضع أخرى من شدة الحر، ثم سجنوه وعذبوه حتى مات في شعبان سنة 255هـ = يوليو سنة 869م

و كان من أهم الأحداث التي شهدتها خلافة المعتز قيام الدولة الصفَّارية في فارس بزعامة يعقوب بن الليث الصفَّار وذهاب أحمد بن طولون إلى مصر سنة 254هـ = 868م نائبًا عن واليها، لكنه استطاع في فترة لاحقة أن يستقل بها عن العباسيين، وأن يضم إليها الشام مكونًا بذلك الدولة الطولونية في مصر والشام

- **المهتدى بالله محمد بن الواثق:**

بايع الأتراك المهتدى بالله خليفة للمسلمين في رجب سنة 255هـ = يونيو سنة 869م، عقب الإطاحة بالمعتز، وقد كان المهتدى تقيا شجاعًا حازمًا، وكان يتخذ عمر بن عبد العزيز مثله الأعلى، ويقول: إنـي أستحيى أن يكون في بنى أمية مثله، ولا يكون مثله في بنى العباس، ولذلك نبذ الملاهي وحرَّم الغناء والخمور وحارب الظلم

حاول المهتدى بالله أن يوقف طغيان الأتراك واستبدادهم فقتل بعضهم، فثاروا عليه وأسروه وعذبوه ليخلع نفسه فرفض، فقاموا بخلعه وسجنه وتعذيبه حتى مات في رجب سنة 256هـ / يونيو 870م. وقد كان من أهم الأحداث التي شهدها عصر المهتدى بالله

ثورة الزَّنج :وسُميت بذلك لأن أعدادًا كبيرة من الذين شاركوا فيها كانوا عبيدًا سودًا، واندلعت هذه الثورة في البصرة بزعامة على بن محمد، الذي قيل إنه ينتسب إلى آل البيت، وحققت مكاسب سياسية ومادية؛ فاستولت في مدة قصيرة على بعض المدن المهمة في العراق، مثل البصرة وواسط والأهواز، ووصلت إلى البحرين وهجر، وارتكبت مذابح بشعة ضد السكان الآمنين، وقد استطاع القائد العباسي الموفق طلحة بن المتوكل القضاء على هذه الثورة -فيما بعد- سنة 270هـ = 883م في خلافة أخيه المعتمد على الله

- **المعتمد على الله، وصحوة الخلافة:**

تولى المعتمد على الله أحمد بن المتوكل الخلافة بعد خلع المهتدى سنة 256هـ / 870م، وقد أتاحت الظروف التي تولى فيها المعتمد مقاليد الحكم ظهور ما عُرف باسم صحوة الخلافة في العصر العباسي الثاني

فقد تصاعد النزاع الداخلي بين القادة الأتراك، وساءت معاملتهم لجنودهم، كما ازدادت شكوى الجمهور من مضايقاتهم، مما أدى إلى ظهور اتجاه قوى داخل الجيش بحتمية جعل القيادة العسكرية العليا في يد أحد أمراء البيت العباسي؛ يقوم الخليفة باختياره، ويدين له الجميع بالطاعة، وقد اختار المعتمد أخاه الموفق قائدًا للجيش، فكانت صحوة الخلافة؛ حيث استردت قوتها وهيبتها واستطاع الموفق بحكمته وحزمه وصلابة إرادته أن يكبح جماح الأتراك، وأن يعيد تنظيم الجيش، ويقر الأمن والنظام و رغم أن المعتمد بالله كان الخليفة الرسمي فإن أخاه الموفق كان صاحب السلطة الفعلية، فكان له الأمر والنهى، وقيادة الجيش ومحاربة الأعداء، ومرابطة الثغور، وتعيين الوزراء والأمراء، وكان قضاء الموفق على ثورة الزنج سنة 270هـ / 883م أعظم إنجاز له

و قد تُوفي الموفق في صفر سنة 278هـ / مايو سنة 891م، وفي العام التالي تُوفي الخليفة المعتمد في رجب سنة 279هـ / سبتمبر سنة 892م، بعد أن حكم البلاد ثلاثة وعشرين عامًا. وقد حفل عهده بالعلماء الأعلام في مجالات المعرفة المختلفة

- **المعتضد بالله أبو العباس أحمد بن الموفق:**

تولى الخلافة بعد وفاة عمه المعتمد، وكان قوى الشخصية؛ فحفظ هيبة الخلافة، كما كانت في عهد أبيه الموفق وعمه المعتمد، يقول السيوطى: كان المعتضد شهمًا جلدًا، موصوفًا بالرُّجلة أى الشجاعة، وقد خاض الحروب وعُرف فضله، فقام بالأمر أحسن قيام، وهابه الناس ورهبوه أحسن رهبة، وسكنت الفتن في أيامه لفرط هيبته، وكانت أيامه طيبة كثيرة الأمن والرخاءو قد تمكن المعتضد خلال حكمه الذي دام عشر سنوات من تهيئة المزيد من القوة والاستقرار للدولة العباسية، فقضى على مصادر الفتن والثورات، وأخمد ثورة بنى شيبان بأرض الجزيرة سنة 280هـ = 893م، و ثورة حمدان بن حمدون – رأس الأسرة الحمدانية – بالموصل، واستولى على قلعة ماردين التي كان يتحصن بها سنة 281 هـ = 894م، كما قضى على ثورة الخوارج في الموصل بزعامة هارون بن عبد الله الشارى الذي وقع في الأسر، وأمر المعتضد

بضرب عنقه سنة 281 هـ =896م، ومن أخطر الحركات التي شهدها عصر المعتضد

- **حركة القرامطة:**

و ترجع بداية هذه الحركة إلى عام 278هـ = 891م قبل تولِّى المعتضد الخلافة بعام، حين قدم إلى الكوفة رجل اسمه حمدان ولقبه قَرْمَط، تظاهر بالعبادة والتقشف والدعوة إلى إمام من

آل البيت، فلقيت دعوته صدى كبيرًا عند أنصار آل البيت، وحين خمدت سيطرته الروحية عليهم أخذ يبث فيهم أفكارًا غريبة عن الإسلام، منها: الشهادة بأن أحمد بن محمد بن الحنفية رسول الله، وأن القبلة إلى بيت المقدس، وأن النبيذ حرام والخمر حلال، وغير ذلك من الأفكار الشاذة

و قد اشتد خطر هذه الحركة بعد ظهور زعيمها أبى سعيد الجنَّابى في البحرين سنة 286هـ / 899م؛ حيث استطاع بسط سلطانه على البحرين وهجر، وكسب أنصارٍ كثيرين له في المناطق التي ينتشر فيها التشيع. وقد تحولت البحرين إلى مركز رئيسى للقرامطة، خرجت منه حملاتهم الحربية في اتجاه العراق و الحجاز والشام؛ لنشر أفكارهم الهدامة التي تهدف إلى هدم كيان المجتمع الإسلامي، وبسط نفوذهم بواسطة خداع العامة بمبادئ وشعارات براقة، كالعدالة والمساواة والبساطة، ومساعدة الآخرين، ولم تدرك الخلافة العباسية مدى الخطورة التي تنطوى عليها هذه الحركة، ووجهت جهودها الحربية إلى حركات أخرى تبدو أكثر منها خطورة، مثل الحركة الصفارية و الطولونية وغيرهما، ومن هنا لم تظفر هذه الحركة من الخليفة المعتضد - الذي عاصر بدايتها الأولى - بما تستحقه من اهتمام

- **انتقال عاصمة الخلافة إلى بغداد:**

ظلت مدينة سامراء أو سر من رأى عاصمة الخلافة العباسية منذ حوالى سنة 221 هـ / 836م – في خلافة المعتصم بالله – إلى أوائل خلافة المعتضد الذي بنى القصر الحسنى ببغداد، وقرر انتقال عاصمة الخلافة إليها سنة 280هـ / 893م

- **وفاة المعتضد:**

تُوفي المعتضد في ربيع الآخر سنة 289هـ = 902م، وكان عصره يموج بالحركة العلمية والدينية والأدبية، فقد عاش في عصره عدد من العلماء والأدباء البارزين

- **المكتفي بالله علي بن المعتضد:**

تولى الخلافة في ربيع الآخر سنة 289هـ = مارس سنة 902م عقب وفاة أبيه، وعمره خمس وعشرون سنة، ورغم أنه كان حسن السيرة محبوبًا لدى الرعية فإنه لم يكن يتمتع بما كان يتمتع به أبوه المعتضد، من قوة الشخصية والحزم، فكانت خلافته تمهيدًا لعودة الأمور إلى أوضاعها السابقة، وفترة انتقالية بين صحوة الخلافة وانتكاستهاو قد شهد عهد المكتفي أحداثًا كثيرة، منها: ازدياد خطر القرامطة وتهديدهم للشام والحجاز واليمن، وقد جرت على يد زعيمهم زكرويه بن مهرويه مذابح بشعة ضد حجاج بيت الله الحرام وعامة الناس، ونشروا الفزع في أنحاء العالم الإسلامي، واستطاع زكرويه أن يهزم جيشًا للخليفة المكتفي، وأن يقتل منه عددًا كبيرًا، فأعد له المكتفي جيشًا حشد فيه أكفأ القواد، نجح في قتل زكرويه وكثيرًا من أتباعه عام 294هـ =

907م، وتتبعهم في العراق، ولكنه لم يستطع القضاء عليهم تمامًا، فظلوا من بعده مصدر خطر مؤكد على كيان الخلافة

و مما شهده عصر المكتفي أيضًا من أحداث: تولية المكتفي أبى الهيجاء عبد الله بن حمدان التغلبى ولاية الموصل والبلاد التابعة لها سنة 291 هـ =906م، وكان ذلك مقدمة لاستقلال الحمدانيين بالموصل -فيما بعد- وضمهم حلب إليها، ونشأة الأسرة الحمدانية.

تُوفي المكتفي وفاة طبيعية في ذى القعدة سنة 295هـ = أغسطس سنة 908م، وترك خزانة الدولة ممتلئة بالأموال، وقد أرجع المؤرخون ذلك إلى الجهد الذي بذله أبوه المعتضد في جلب أسباب الاستقرار الاقتصادي إلى الدولة، وحسن سيرة المكتفي بالله

- **المقتدر بالله جعفر بن المعتضد:**

تولى الخلافة بعد أخيه المكتفي بعهد منه في ذى القعدة سنة 295هـ = أغسطس سنة 908م، وكان صبيا في الثالثة عشرة من عمره، ولم يلِ الخلافة قبله أصغر منه. أثار تولى المقتدر الخلافة اعتراض كثير من رجال الدولة بسبب صغر سنه، وعدم قدرته على الاضطلاع بشؤون الخلافة مع وجود الأقدر منه على تحمل المسؤولية، خاصة عبد الله بن المعتز الشاعر المعروف بتمام العقل وجودة الرأي، فاتفق رأى عدد منهم على خلع المقتدر و تولية عبد الله بن المعتز، وكان عمره نحو تسعة وأربعين عامًا، وعندما عرضوا الأمر على ابن المعتز وافق بشرط ألا يسفك دم أو تنشب حرب، فأخبروه أن الأمر يُسلَّم إليه عفوًا، وأن جميع من وراءهم من الجند والقواد والكُتَّاب قد رضوا به فبايعهم على ذلك، وتمت البيعة لابن المعتز في 19من ربيع الأول سنة 296هـ = نوفمبر سنة 908م، ولقب بالراضي بالله، ولكن أنصار المقتدر - وعلى رأسهم مؤنس الخادم - لم يرضوا بهذه البيعة، وتوجهوا نحو ابن المعتز وأنصاره وقبضوا عليهم وفتكوا بهم وأعادوا تنصيب المقتدر في اليوم التالي لبيعة ابن المعتز، الذي لم يمكث في الخلافة إلا يومًا أو بعض يوم، ولهذا يتجاهله المؤرخون عند ذكرهم قائمة خلفاء بنى العباس

و قد تدهورت الأوضاع في عهد المقتدر، وانتشرت الفتن وازداد تمزق الدولة، وأصبحت الخلافة نهبًا للطامعين بسبب صغر سنه، وأفلت زمام الأمور من يده، و تحكم النساء والخدم في شؤون البلاد، فكانت أم المقتدر وتسمى شغب تولِّى من تشاء وتعزل من تشاء، كما كان مؤنس الخادم صاحب مكانة متميزة وخطيرة في عهد المقتدر

و قد ازداد خطر القرامطة اتساعًا وعنفًا في عهد المقتدر، ووصل مداه سنة 317هـ / 929م، حينما دخلوا مكة بقيادة أبى طاهر القرمطى وقتلوا الحجاج في المسجد الحرام، واستولوا على الحجر الأسود وأخذوه إلى مركزهم الرئيسى هَجَر حتى تم رده إلى مكانه في عهد المطيع سنة 339هـ / 950م.

- **بداية ظهور الفاطميين:**

و من أهم الأحداث في عهد المقتدر بداية ظهور العُبيديين أو الفاطميين في شمالى إفريقيا ويرجع الفضل في قيام الدولة الفاطمية إلى أبى عبد الله الحسين بن أحمد، المعروف بأبى عبد الله الشيعى، أحد دعاة الفاطميين البارزين في المغرب وكان يعرف أحيانًا باسم المحتسب؛ لأنه كان مراقبًا لأسواق البصرة بالعراق قبل انتقاله إلى المغرب. وقد تمكن أبو عبد الله الشيعى من القضاء على دولة الأغالبة في المغرب، والاستيلاء على عاصمتهم رقادة سنة 296هـ / 909م، وتم تنصيب أول إمام من أئمة الفاطميين وهو عبيد الله المهدى -وكنيته أبو محمد- الذي قيل إنه من سلالة الإمام الحسين بن على بن أبى طالب و قد تلقب عبيد الله المهدى بأمير المؤمنين، وبنى مدينة المهدية عاصمةً له، وانتقل إليها من رقادة سنة 308هـ / 920م، وقد نجح الفاطميون في الاستيلاء على مصر سنة 358هـ / 969م، في عهد الخليفة الفاطمى المعز لدين الله

- **قيام دولة بنى حمدان:**

و من الأحداث المهمة التي شهدها عهد المقتدر - أيضًا - قيام دولة بنى حمدان في الموصل، فقد استمر أبو الهيجاء عبد الله بن حمدان يحكم الموصل والبلاد التابعة لها من قِبل الخليفة المكتفي حتى وفاته سنة 317هـ / 929م، فورثه ابنه حسن الملقب ناصر الدولة على ولاية

الموصل، واستطاع أن يمد سلطانه إلى ديار ربيعة ومضر بأرض الجزيرة، وقد اتسع نفوذ الحمدانيين وملكهم بعد وفاة الخليفة المقتدر، ونجحوا في بسط سلطانهم على حلب وشمال الشام سنة 331 هـ / 945م بقيادة زعيمهم المعروف سيف الدولة الحمدانى، الذي قال فيه المتنبى أروع قصائد المديح و قد أسهم أمراء بنى حمدان وفي مقدمتهم سيف الدولة الحمدانى في صد غارات الروم البيزنطيين عن مناطق الثغور الإسلامية، وفي رعاية الحركة العلمية والأدبية التي بلغت في عهدهم مركزًا مرموقًا.

- **وفاة المقتدر بالله:**

ساءت العلاقة بين المقتدر بالله وخادمه مؤنس الخادم؛ مما أدى إلى مقتله على يد أنصار مؤنس في أواخر شوال سنة 320هـ = 932م، بعد أن ظل في الحكم خمسًا وعشرين سنة، هي أطول مدة يقضيها خليفة عباسي في الحكم حتى عصره

و رغم تدهور أحوال البلاد السياسية في عهد المقتدر فإن الحياة العلمية قد شهدت ازدهارًا ملحوظًا في هذا العصر. وبمقتل المقتدر دخل عصر نفوذ الأتراك مراحله الأخيرة

- **القاهر بالله أبو منصور محمد بن المعتضد:**

تولى الخلافة في شوال سنة 320هـ = 932م، عقب مقتل المقتدر، وعمره ثلاث وثلاثون سنة.وقد اتصف القاهر بالغلظة وقلة التثبت، ورغم أنه نجح في التخلص من مؤنس الخادم، صاحب النفوذ الأكبر في عهد المقتدر، ومن غيره من أعيان الدولة فإن سوء سياسته كان سببًا في تدبير الانقلاب عليه والإطاحة به.

و قد لعب الوزير المشهور أبو على بن مقلة الدور الأساسي في خلع القاهر والتنكيل به، لخوفه منه واعتقاده أنه كان يدبر للقضاء عليه، فهاجم أعوانه الخليفة القاهر في دار الخلافة وقبضوا عليه وسملوا عينيه وعذبوه وأعلنوا خلعه في الثالث من جمادى الأولى سنة 321 هـ / 934م.

و لعل من أبرز التطورات السياسية التي شهدها عهد القاهر –رغم قصره- ظهور النفوذ البويهى في بلاد فارس سنة 321 هـ / 933م، وكان ذلك مقدمة لامتداد نفوذهم إلى العراق وسيطرتهم على مقاليد الأمور هناك في سنة 334هـ / 945م، لتبدأ مرحلة جديدة في تاريخ الخلافة العباسية في عصرها الثاني، كما سنبين فيما بعد.

- **الراضي بالله أبو العباس محمد بن المقتدر:**

بايع الجند الراضي بالله في السادس من جمادى الأولى سنة 321 هـ وعمره خمسة وعشرون عامًا، وقد كان من خيار الخلفاء، فاضلاً سمحًا جوادًا،شاعرًا محبا للعلماءورغم ما كان يتحلى به الراضي من صفات حميدة فإن أمر الخلافة قد اختل في عهده اختلالاً خطيرًا، وازداد تمزق الدولة واستفحل نفوذ المتطلعين للسيطرة على زمام الأمور؛ فقد ازداد نفوذ البويهيين في فارس وتطلعوا للاستيلاء على العراق، وتمتع بنو حمدان بنفوذ مطلق في الموصل وديار بكر وربيعة ومضر، واستقلت الدولة الإخشيدية في مصر والشام عن الخلافة العباسية، وكذلك الدولة السامانية في خراسان وما وراء النهر بزعامة نصر بن أحمد السامانى، وأصبح للأمويين خلافة مستقلة في الأندلس تحت حكم عبد الرحمن الثالث الأموى الملقب بالناصر 300 - 350هـ

/ 913 - 961م، وسيطر القرامطة بزعامة أبى طاهر القرمطى على البحرين واليمامة.

- **ظهور منصب أمير الأمراء:**

تدهورت الأوضاع في أوائل عهد الراضي تدهورًا كبيرًا، بسبب عجز الوزراء وازدياد نفوذ كبار القواد وتدخلهم في شؤون الدولة، وكان محمد بن رائق والى واسط والبصرة واحدًا من أبرز هؤلاء القواد وأكثرهم نفوذًا وتأثيرًا، فاختاره الخليفة الراضي ليقوم بمهمة إنقاذ الخلافة من التدهور الإداري الحاد الذي تعانى منه، وأسند إليه منصب أمير الأمراء في عام 324هـ / 936م.

و قد أصبح محمد بن رائق بمقتضى هذا المنصب الخطير الذي لم يظهر قبل ذلك على مسرح الأحداث السياسية في الدولة الإسلامية، القائد الأعلى للجيش، والمسؤول عن إدارة شؤون الدولة والخراج، وأصدر الخليفة الراضي أمرًا بأن يُخطَب لابن رائق على جميع المنابر في جميع النواحي الخاضعة للخلافة، وبذلك تحولت الخلافة إلى منصب شرفي، وأصبح شاغل منصب أمير الأمراء هو الحاكم الفعلي للبلاد؛ مما جعل كبار رجال الدولة أمثال أبى عبد الله البريدي صاحب الأهواز، وبَجْكم التركي، وناصر الدولة بن حمدان صاحب الموصل، وتوزون التركي رئيس الشرطة وغيرهم، يتصارعون للوصول إليه، حتى جاء البويهيون فسيطروا على زمام الأمور ووضعوا حدا لهذا الصراع.

تُوفي الخليفة الراضي بالله وفاة طبيعية في منتصف ربيع الأول سنة 329هـ / ديسمبر سنة 940م، بعد أن فقد السيطرة على مقاليد الأمور بصورة تكاد تكون كاملة

المتقى لله أبو إسحاق إبراهيم بن المقتدر:تولى الخلافة في ربيع الأول سنة 329هـ /ديسمبر سنة 940م بتدبير أمير الأمراء بَجْكم التركى وكاتبه أبى عبد الله الكوفي، وكان عمره حينئذٍ أربعًا وثلاثين سنة.

كانت خلافة المتقى القصيرة 329 – 331 هـ = 940- 944م سلسلة من الصراع بين كبار رجال الدولة على منصب أمير الأمراء، مما أضاف مزيدًا من الاضطراب والفوضى إلى الأوضاع الداخلية، وفقد المتقى سيطرته على زمام الأمور، فقام أمير الأمراء توزون التركى بسمل عينيه وخلعه، وبذلك انتهت خلافته في صفر سنة 331 هـ /سبتمبر سنة 944م.

- **المستكفي بالله وانتهاء عصر نفوذ الأتراك:**

تمت بيعته بالخلافة في صفر سنة 331 هـ / سبتمبر سنة 944 بحضور أمير الأمراء توزون التركى وإشرافه، وعمره واحد وأربعون عامًا ولم يكن له أدنى سلطة في إدارة شؤون البلاد، بل استمر زمام الأمور في يد أمير الأمراء أبى الوفاء توزون التركى، وكاتبه أبى جعفر بن شيرزاد، وكان من أبرز الأحداث التي شهدتها خلافة المستكفي بالله امتداد سلطان الحمدانيين بقيادة سيف الدولة الحمدانى على حلب وحمص اللتين كانتا تحت سيطرة الإخشيديين.

تدهورت الأحوال الداخلية في عهد المستكفي بشكل غير مسبوق؛ مما أدى إلى تطلع البويهيين –أصحاب النفوذ في بلاد فارس- منذ سنة 321 هـ / 933م إلى بسط سلطانهم على العراق، وقد نجحوا في ذلك سنة 334هـ / 945م، لتبدأ مرحلة جديدة في تاريخ الخلافة العباسية، عُرفت فيما بعد باسم عصر نفوذ البويهيين.

المحاضرة السادسة.

عنوان المحاضرة: الدويلات المستقلة عن الخلافة العباسية.

(دول الشرق الإسلامي)

- **الدولة الطاهرية (205-259 هـ/820-872 م):**

الطاهريون من أصل فارسي من موالي قبيلة خزاعة العربية، والدولة الطاهرية تعتبر أول حركة استقلالية ظهرت في المشرق الإسلامي، أسسها " طاهر بن الحسين" أحد قواد الخليفة العباسي المأمون في خراسان، وقصة ذلك أن القائد طاهر بن الحسين وقف بحزم وقوة إلى جانب الخليفة في حربه ضد أخيه، الأمين، وبعد أن استتب الأمر للمأمون كافأه بأن ولاه خراسان سنة 205هـ، ثم أضاف إليه أعمال المشرق كله بدءاً من بغداد، وهكذا نلاحظ أن الدولة الطاهرية قامت برغبة الخلافة العباسية وتأييدها.

اتخذ طاهر بن الحسين من مدينة **نيسابور** عاصمة له وبدأ يتصرف كحاكم مستقل تحت سلطة الخلافة العباسية، فقد بدت منه منذ اليوم الأول لحكمه ميوله نحو الاستقلال، ولكن مات سريعاً ولم تدم ولايته أكثر من سنتين فلم يحقق شيئاً من أحلامه.

وعلى الرغم من معرفة المأمون بميولات طاهر بن الحسين الاستقلالية فإنه أقر ابنه طلحة على ولاية خراسان بعد أبيه، فقابل الطاهريون ثقة المأمون بإخلاصهم له والعمل على تدعيم أركان دولته، فلم يفكروا بعد ذلك في الاستقلال عن الخلافة العباسية بل حرصوا على التعاون معها والاعتراف بسيادتها، ولعل خير مثال على إخلاص الطاهر يين للخلافة العباسية موقف "عبد الله بن طاهر" الذي كان والياً للمأمون على مصر أثناء ولاية والده " طاهر بن الحسين" على خراسان، فكانت مصر تغلي بالفتن، فقضى عبدالله بن طاهر على الخارجين بها، وأصلح أحوالها، وعلى الرغم من اتساع ولايته حتى شملت الشام والجزيرة فإنه: أمَن البلاد وأصلح أحوال العباد، ودان له الناس بالطاعة والولاء.

توفي طلحة بن طاهر سنة 214هـ فتولى أمر خراسان أخوه " عبد الله بن طاهر " فازدهرت خراسان في عهدة، فقد قضى على الحركات العلوية فيها، وتعاون مع الخلافة العباسية في قمع الخارجين عليها: فقد كشف مؤامرة المازيار والأفشين بجبال طبرستان ضد الخليفة المعتصم، ثم أرسل جيوشه لقتال مازيار ولم يزل يجالده حتى هزمه وقبض عليه وأرسله إلى سامراء، وشارك بنو طاهر بعد ذلك في الأحداث التي كانت تجري في بغداد لصالح الخلافة العباسية.

ولما مات عبد الله بن طاهر، أخذت الدولة الطاهرية في الضعف وظهر لها أمراء منافسون مثل الصفاريين وغيرهم، ولكن أمراء بني طاهر أبقوا على الصلات الودية بينهم وبين الخلافة العباسية إذ ظل التعاون بينهم قائما، وتجلى ذلك في وقوفهم إلى جانب الخلافة في التصدي لثورة " الحسن بن زيد العلوي " الذي ظهر في طبرستان سنة 250هـ واجتمع إليه الديلم وأهل طبرستان، ولم يزالوا به حتى قُضي على ثورته.

وفي عهد الأمير محمد بن طاهر بن عبد الله دخل الطاهريون في صراع مع " يعقوب بن الليث الصفاري" الذي كان يطمع في الاستيلاء على خراسان، مستغلاً ضعف الدولة الطاهرية، فأعد يعقوب جيشاً جرارا وسار بهم نحو نيسابور عاصمة خراسان لإخراج بني طاهر منها، وحين أدرك أهلها أن محمد بن طاهر لا يستطيع الدفاع عنها راسلوا الصفار فدخل نيسابور 259هـ وضم خراسان لدولته وقضى على الدولة الطاهرية، وأحسن الصفار معاملة أهل المدينة لكنه أساء إلى محمد بن طاهر وحبسه وأهل بيته.

وقد قدر العباسيون خدمات الطاهريين، فقربوهم إليهم ومالوا إلى جانبهم في النزاع مع الصفاريين، وأبقوا شرطة بغداد في أيديهم حتى سنة 310 هـ على الرغم من زوال ملكهم في خراسان.

ومما لا شك فيه أن حكم الطاهريين للمشرق كان حكماً صالحاً، فقد اهتموا بأمر رعاياهم، وأصلحوا الأحوال الاقتصادية وأقروا الأمن فيها، كما تعهدوا عمالهم بالنظر والمراقبة، فكانوا

يضربون يد كل من يظلم الرعية منهم، كما تعهدوا أهل العلم والمعرفة، وأصبحت نيسابور في عهدهم مركزاً من مراكز الثقافة الإسلامية، وحافظ الطاهريون كذلك على الثغر الشرقي ومدوا نفوذ العالم الإسلامي في بلاد الترك، ووطدوا سلطان المسلمين بالقضاء على الخارجين من ملوك الترك الذين كانوا قد دخلوا في طاعة المسلمين.

- **الدولة الصفارية: (254-290 هـ/867-903 م):**

- **يعقوب بن الليث الصفار:**

بدأ يعقوب وأخوه عمرو حياتهما يشتغلان بصناعة الصفر بإقليم سجستان جنوب خراسان، وكانا يعيشان من كدهما وكسب أيديهما ثم التحقا بفرقة " المتطوعة" التي تكونت لقتال الخارجين على الدولة العباسية في سجستان والأقاليم الشرقية للعالم الإسلامي، ذلك أن مركز الخلافة العباسية كان قد ضعف بسبب سيطرة الأتراك على الخلافة فطمع كثيراً من الأمراء المحليين ومن الخارجين في اقتطاع بعض أملاك العباسيين،ولم تستطع الدولة الطاهرية التي كانت تعمد عليها الخلافة في الشرق أن تخمد حركات الطامعين مما أدى إلى تعرض حدود الدولة الإسلامية الشرقية والشمالية لهجمات الترك والهنود والديلم، لذلك تكونت جماعة من المتطوعين للجهاد في سبيل الله صيانة للوحدة الإسلامية ودفعاً لأذى المهاجمين الطامعين، ولكن هذه الفرقة كانت تحت سلطة الطاهرين.

استطاع "يعقوب بن الليث الصفار" لما له من شخصية قوية أن يكسب ولاء الجند له وتولى الزعمه، وبرهن يعقوب منذ اليوم الأول في القيادة على مقدرة وكفاءة عالية، فقد ضبط أمور الجند ووجههم إلى أعمال ناجحة، فحارب الخارجين على الدولة وظفر بهم، حفظ الأمن وأمر بالمعروف ونهي عن المنكر، فأطاعه الجند وكثر أتباعه، واشتدت شوكته فسيطر على إقليم سجستان لكنه أظهر التمسك بطاعة الخليفة العباسي، ثم تقدم إلى خراسان واحتل مدينتي "هراة وبوشنج " وهزم جيوش الطاهريين التي تقدمت لمنعه، وعند ذلك هابه أمير خراسان وغيره من أمراء الأطراف.

وأخذ يعقوب يوسع دولته على حساب إقليم خراسان، وأخذ يرسل هداياه إلى الخليفة " المعتز" في بغداد ليعلن أنه يعمل تحت إمارته، ثم توجه نحو السند وحقق العديد من الانتصارات، عند ذلك أرسل له الخليفة التقليد بولاية البلاد التي ملكها من بلخ وطخارستان إلى ما يلي ذلك من كرمان وسجستان والسند وغيرها، غير أن يعقوب لم يستمر في هذه السياسة الجهادية المثمرة فيما وراء الحدود الإسلامية إذ سرعان ما تحول عنها إلى سياسة التوسع داخل الأراضي الإسلامية، فانتهز فرصة ضعف الدولة الطاهرية فتقدم بجيوشه نحو مدينة " نيسابور" عاصمتهم فاحتلها 259هـ وبذلك أسقط الدولة الطاهرية وورث ممتلكاتها.

تحدى يعقوب الخلافة معتمداً على قوة جيشه وطاعة جنده وتقدم واحتل فارس وحاصر الأهواز وزحف نحو العراق، فرأت الخلافة أن تترضى الصفار فأرسلت إلية تقليداً بولاية خراسان وطبرستان والري وفارس وتعيينه أميراً على شرطة بغداد وسامراء، وبذلك حققت له جميع طلباته، على أن الذي دفع بالخلافة لاسترضاء الصفار أنها كانت واقعة بين قوتين لم تشأ

أن تواجههما في آن واحد، وكانت تخشى اتفاقهما عليها وهما قوة الصفار التي وصلت الأهواز، وقوة صاحب الزنج في إقليم البصرة ولما كان الموفق أخوالخليفة يستعد لقتال صاحب الزنج فإنه ترضى الصفار ليكسب ولاءه وليبعده عن المعركة، وفي الوقت نفسه رأت الخلافة أن تضرب قوة الصفاريين بقوة ناشئة في بلاد ما وراء النهر التابعة لخراسان التي يحكمها الصفاريون وهي قوة السامانيين، فاعترفت بها الخلافة كإمارة مستقلة في بلاد ما وراء النهر غير تابعة لخراسان والصفاريين وعهدت بولايته "نصر بن أحمد الساماني"، وبذلك جعلت الخلافة لنفسها قوة موالية لها وراء الصفار تستخدمها عند اللزوم.

ولكن يبدو أن يعقوب الصفار كان قصير النظر من الناحية السياسية، فقد غره تساهل الخلافة معه، ولم يقتنع بما حصل عليه وتقدم نحودار الخلافة ليرغمها على الإذعان لقوته عند ذلك خرج جيش الخلافة بقيادة الموفق لمواجهة يعقوب الصفار، فانهزم يعقوب الصفار ثم عاد ليستعد لمعركة أخرى فاستولى على الأهواز من صاحب الزنج، وتعتبر الأهواز مفتاح العراق من ناحية فارس، ولما لم تكن الخلافة متفرغة لقتال الصفار فقد أرادت أن تستميل يعقوب بتقيلده أعمال فارس لكن الموت عاجل يعقوب الصفار فتوفي سنة 265هـ /878م.

- **عمرو بن الليث الصفار:**

تولى عمرو بعد وفاة أخيه يعقوب، فكتب عمرو إلى الخلافة بطاعته، فاعترفت به الخلافة والياً على خراسان وفارس وأصبهان وسجستان والسند وكرمان وشرطة بغداد، لكن الخلافة العباسية لم تنسى للصفاريين ما فعلوه ضدها، فلما تخلصت من ثورة الزنج وجهت اهتمامها للصفاريين فأصدر الخليفة المعتمد قراراً بعزل عمرو بن الليث الصفاري عن البلاد التي ولاه إياها وأعلن هذا الخلع على ملأ الحجاج الخراسانيين في بغداد، ولعن الصفار وأمر بلعنه على المنابر، وقلد خراسان لمحمد بن طاهر، وأرسل جيشاً لقتال الصفار فقاتله وانتصر عليه، أما محمد بن طاهر والي خراسان الجديد فقد بقي في بغداد وأناب عنه "رافع بن هرثمة" في خراسان وأبقى ما وراء النهر في يد إسماعيل بن سامان.

لكن طموح عمرو بن الليث لم يقف عند حد فقاتل "رافع بن هرثمة" في خراسان فهزمه وطلب من الخليفة أن يعيد بلاد ما وراء النهر إلى خراسان ويوليه إياها، فانتهز الخليفة المعتمد هذه الفرصة وأراد أن يضرب عمراً بقوة السامانيين الناشئة في بلاد ما وراء النهر عن طريق تولي عمرو بلاد ما وراء النهر وكان قبل ذلك قد منحها للسامانين، وتقدم عمرو بجيوشه إلى بلاد ما وراء النهر وكتب إلى إسماعيل بن أحمد الساماني ليسلمه البلاد فرد عليه إسماعيل: " **إنك قد وليت دنيا عريضة، وأنا في يدي ما وراء النهر، وأنا في ثغر، فاقنع بما في يدك، واتركني مقيماً بهذا الثغر"**، فرفض الصفار كتاب إسماعيل وسار بنفسه لقتال السامانيين لكنه هزم وأسره السامانيون وبعثوا به إلى الخليفة الذي سجنه حتى مات، وضعف أمر الصفاريون بعد موت عمرو فقد تولى بعده أمراء ضعاف لم تتركهم الخلافة العباسية فقد أخذت ترسل الجيوش تلو الجيوش لمحاربتهم حتى استطاعت أخيراً القضاء على الدولة الصفارية نهائياً سنة 298هـ.

انتهت الدولة الصفارية بعد هذا العمر القصير الذي لم يتجاوز خمساً وثلاثين سنة، على الرغم من قوة جيوشها وحسن تدريبهم وتسليحها، وعلى الرغم من اتساع البلاد التي سيطروا عليها، وعلى الرغم من امتلاء خزائنها بالأموال ولعل السبب في هذه النهاية السريعة للصفاريين يعود إلى أنهم اتجهوا إلى المجال الداخلي وأتجه طموحهم لإقامة ملك لهم فحاربوا إخوانهم

المسلمين فأثاروا عليهم سخط الخلافة والقوى الإسلامية المجاورة، ولوأنهم اتجهوا إلى الخارج وحاربوا غير المسلمين لكسبوا احترام الخلافة والقوى الإسلامية المجاورة وعامة المسلمين.

- **الدولة السامانية (261-381 هـ/874-991 م):**

الأسرة السامانية أسرة فارسية نبيلة كانت تدين بالمجوسية، أسلم جدهم "سامان" الذي كان أحد أشراف مدينة "بلخ"، زمن الوالي على خراسان " أسد بن عبد الله القسري" ورزق سامان بمولود أسماه "أسد" تيمنا بالوالي الأموي.

أنجب أسد أربعة أبناء هم نوح، أحمد، يحي وإلياس، وقد سطع نجم أولاد أسد في عهد الخليفة العباسي المأمون الذي أوعز عام 204 هـ = 820م إلى الأمراء الطاهريين في خراسان بتعيينهم على بعض الولايات التابعة لهم في بلاد ما وراء النهر مثل: سمرقند، فرغانة، اشروسنة، وهراة، ففعلوا.

- **ظهور الدولة السامانية:**

ظل الأمراء السامانيون يخضعون للطاهريين حتى زوال دولتهم 259هـ/872م فاستقل السامانيون بولايتهم وأصبحوا يرتبطون مع الخلافة العباسية مباشرة، وحينما أشتد خطر الصفاريين أصدر الخليفة العباسي المعتمد أمراً بتعيين " نصر بن أحمد بن سامان" والياً على جميع بلاد ما وراء النهر سنة 861هـ/847م فكان هذا بداية ظهور الدولة السامانية، فبسط نصر نفوذه على البلاد التي ولي عليها واستولى على مدينة **بخارى** – أعظم مدن ما وراء النهر – واتخذها عاصمة لدولته.

توفي نصر بن سامان 279هـ /892م فخلفه أخوه "إسماعيل بن أحمد"، فحارب الدولة الصفارية وانتصر عليها وضم أراضيها في خراسان وسجستان إلى دولته، ثم حارب الشيعة العلويين واحتل طبرستان، والخلاصة أن الدولة السامانية بلغت أقصى اتساعها في عهد الأمير إسماعيل: فقد وصل السامانيون إلى قمة نفوذهم السياسي ومجدهم الحربي، إذ أصبحت بلاد ما وراء النهر وفارس تحت سيطرتهم، ولذلك اعتبر بعض المؤرخين إسماعيل بن أحمد المؤسس الحقيقي للدولة السامانية.

وقد ازدهرت العاصمة السامانية بخارى في عهد الأمير إسماعيل، فأقام فيها المنشآت الفخمة والقصور والمدارس، ووفد عليه العلماء من كل صوب، ووجدوا منه كل تشجيع.

وتوفي إسماعيل بن أحمد في مدينة بخارى سنة 295هـ / 357م بعد أن حكم أكثر من ثلاثين سنة أقام فيها العدل والإحسان في جميع أرجاء دولته.

وبعد وفاة إسماعيل تولى بعده ابنه "نصر بن أحمد" ومن أهم إنجازات هذا الأمير انه تمكن من إزالة الدولة الصفارية نهائياً، ولكن مدة ولايته لم تطل إذ اغتيل بعد ست سنوات من حكمه ودفن في مدينة بخارى.

بعد وفاة أبي نصر أحمد تولى مكانه ولده "السعيد أبو الحسن نصر بن أحمد" وكان في العاشرة من عمره، فاستصغر الناس سنة واستضعفوه، واعتقدوا أن أمره لا يتم لكن الخليفة العباسي "المقتدر" اعترف به وأقره على ولايته وأقر كذلك لقبه "السعيد" وأمضى الملك السعيد عدة سنوات في حرب الخارجين عليه فلما انتهى من ذلك أخذ يوسع حدود بلاده فاستولى على عدة مدن مثل: قزوين، قم همذان غيرها، حتى بلغ حدود حلوان في العراق، ثم توفي هذا الأمير سنة 331هـ/942م.

تولى بعد الملك السعيد ابنه " نوح بن نصر" المعروف باسم نوح الأول، وقد أستهل هذا الأمير حكمه بالعفو عن الأمراء المخالفين له بل وولاهم بعض الولايات ليتألف قلوبهم ويكسب ولاءهم، وقد شهد عهد هذا الأمير اضطرابات عنيفة بسبب بعض الأمراء الخارجين أو بسبب الصراع بينه وبين بني بويه الشيعة، لكن ذلك لم يدم طويلا فقد استقرت الأمور بيد الأمير نوح الأول وبقيت الأمور مستقرة حتى وفاته 434هـ /954م.

تولى بعد نوح الأول ابنه " عبد الملك بن نوح " الملقب بالرشيد، وتدهورت أمور الدولة في عهد هذا الأمير إذ تمكن بعض الخارجين عليها من الاستيلاء على بعض المناطق الغربية، واضطر الرشيد أن يصالح جيرانه الطامعين بدولته كالديلم والبويهين وتنازل لهم عن بعض أراضيه، وتوفي هذا الأمير بعد سبع سنوات من حكمه.

- **ضعف الدولة السامانية وزوالها:**

بعد وفاة عبدالملك بن نوح تولى مكانه أخوه "أبي صالح منصور بن نوح"، وشهد بداية ضعف السامانية وأفول نجمها، فقد خرجت منطقة سجستان عن طاعة السامانيين مما كان له أسوأ الأثر على وحدة الدولة، واستمرت العلاقات العدائية بين السامانيين والبويهين ولم تنته إلا بتوقيع صلح بين منصور بن نوح وعضد الدولة البويهي سنة 361هـت/942م، لكن الأمير منصور بن نوح توفي بعد ذلك بخمس سنوات، بعد ذلك تولى عدد من أمراء البيت الساماني لكم أمور الدولة كانت من سيء إلى أسوأ فانتهز محمود الغزنوي فرصة ضعف الدولة السامانية فاستولى على كل خراسان وأزال نفوذ السامانيين عنها وخطب للخليفة العباسي"القادر بالله"

- **أسباب زوال الدولة السامانية:**

يعود زوال الدولة السامانية لعدة أسباب منها:

- الخلافات الداخلية بين أفراد البيت الساماني مما أدى إلى كثير من الفتن والثورات الداخلة.

اعتماد السامانيين على العنصر التركي في الجيش.

- تدخل النساء والوزراء وكبار القادة في أمور الحكم بسبب صغر سن الأمراء السامانيين.

الضغط الخارجي الذي تعرضت له الدولة السامانية سواء من الغزنويين أو خانات الترك أو البويهيين .

- **السامانيون والخلافة العباسية:**

امتازت العلاقة السامانية – العباسية بقيامها على المودة والاحترام، وربما يعود ذلك لبعد الدولة السامانية عن بغداد مركز الخلافة لعباسية، ولحاجة كل من الطرفين للآخر، فقد حرص السامانيون على إظهار ولائهم وطاعتهم للخليفة العباسي في بغداد وإعلان تمسكهم بالخلافة بحكم كونهم من أهل السنة، ثم أنهم بحاجة للخلافة العباسية لإضفاء الشرعية على حكمهم،والخلافة العباسية بحاجة للسامانيين لحفظ الثغور الشرقية للعالم الإسلامي، ولإقرار سلطانها على بلاد المشرق، وللوقوف في وجه الطامعين للسيطرة على الخلافة مثل الصفاريين والغزنويين وغيرهم.

- **الحضارة في الدولة السامانية:**

امتاز العصر الساماني بنهضة علمية وأدبية رائعة، جعلت من عاصمتهم بخارى مركزاً كذلك سمرقند من أهم المراكز الإسلامية، ويرجع في ذلك إلى سياسة أمراء السامانيين الذي عملوا على إحياء اللغة الفارسية، وترجمة أمهات الكتب العربية إلى تلك اللغة، كما شجعوا العلماء والأدباء والشعراء والأطباء، حتى عاش في كنفهم عدد كبير منهم أمثال: الطبيب أبو بكر محمد بن زكريا الرازي الذي كان صديقا للأمير منصور بن إسماعيل الساماني وألف كتاب المنصوري كعربون لهذه الصداقة، والطبيب الفيلسوف ابن سينا الذي ذهب إلى بخارى وعالج الأمير نوح بن نصر الساماني، والوزير محمد بن عبد الله البلعمي الذي ترجم تاريخ الطبري إلى اللغة الفارسية سنة 352هـ/963م.

وعني الأمراء السامانيون كذلك بإنشاء المكتبات العامة للناس، فقد أنشأ الأمير "نوح بن نصر" مكتبة عظيمة يقول عنها ابن خلكان: "عديمة المثل، فيها من كل فن من الكتب المشهورة بأيدي الناس وغيرها مما لا يوجد في سواها ولا سمع باسمه فضلاً عن معرفته".

كذلك امتاز العهد الساماني بنهضة صناعية تتجلى بصورة واضحة في الصناعات الخزفية الجميلة التي اشتهرت بها مدينة"طشقند"، وفي صناعة الورق التي أخذوها عن الصين وامتازت بها مدينة"سمرقند" أيام السامانيين، ومنها انتشرت إلى بقية أنحاء العالم الإسلامي، هذا إلى جانب صناعة السجاد والمنسوجات الحريرية.

- **ظهور دولة بني بويه (334-447 هـ/945-1055 م):**

امتد هذا العصر حوالي مئة وثلاثة عشر عاماً (334هـ-447هـ) وقد تعاقب على الحكم فيه خمسة من الخلفاء هم: المستكفي، والمطيع، والطائع، والقادر، والقائم الذي عاصر النفوذ السلجوقي أيضاً.

اختلف المؤرخون في نسب آل بويه، ففي حين ينسبهم البعض إلى آل ساسان بن يزدجرد أحد ملوك الفرس وينسبهم البعض الآخر إلى مواطنين عاديين، بل إن البعض أرجعهم إلى أصول عربية، لكن الأرجح أنهم كانوا أسرة فارسية فقيرة – ربما كان أحد ملوك فارس القدماء

من أجدادهم – وكانت هذه الأسرة تعيش في بلاد الديلم الواقعة جنوب غرب بحر قزوين، وكان عائلها أبو الشجاع بويه يعمل في صيد السمك من بحر قزوين.

التحق أبو شجاع بويه وأبناؤه الثلاثة (علي والحسن وأحمد) بخدمة "مرداويج بن زيار الديلمي" الذي كان استقل بمنطقة طبرستان والديلم، وأصبحوا جنوداً مقاتلين يشار إليهم بالبنان، وترقوا في المناصب حتى أحبهم مرداويج فمنح الابن الأكبر "علي بن بويه" حكم إقليم "الكرج" الواقع بين همذان وأصفهان وذلك عام 318هـ، ثم أن مرداويج بن زيار غضب على "علي بن بويه" وأرسل جيشاً لطرده من بلاد الكرج لكن علي انتصر على جيش مرداويج واحتل "أصفهان" وجمع حوله مئات المقاتلين من الديلم وسار بهم حتى احتل "اصطخر" ومناطق أخرى من بلاد فارس عام322هـ.

وبعد وفاة مرداويج بن زيار 322هـ انتهز "علي بن بويه" الفرصة، فأخذ يوسع حدود دولته نحو الجنوب فاحتل مدينة"شيراز" واتخذها مقراً لحكمه، وأرسل أخاه "الحسن بن بويه" إلى بلاد الجبل فاحتلها واستقر فيها، وأرسل أخاه الثاني "أحمد بن بويه" إلى كرمان والأهواز فاحتلها، وأصبح مطلاً على العراق يترقب الفرصة المناسبة للتدخل في شئونه، وهكذا أصبح بنو بويه يحكمون سائر بلاد فارس وبعض المناطق المجاورة حتى حدود العراق باعتراف من الخليفة العباسي الراضي الذي قلد " علي بن بويه" إمارة البلاد التي تحت يده، وأطلق علي بن بويه على نفسه لقب ملك وأطلق على أخويه"أحمد والحسن" لقب أمير، وقامت العلاقة بين الإخوة الثلاثة على أساس من المودة والصفاء والطاعة لكبيرهم الذي كانوا يفتحون البلاد باسمه.

أما في العراق فقد كانت الأحوال السياسة والاقتصادية فيها قد تدهورت في ذلك الوقت بسبب تنافس وتنازع الأتراك على منصب إمرة الأمراء، وعجزهم عن دفع أرزاق الجند وحفظ الأمن في البلاد، وشعر أهل العراق بهذا العجز الذي يعانيه أمراء الأتراك في إقرار الأمور في البلاد وأخذوا يتطلعون إلى الأمير"أحمد بن بويه" الذي يرابط على حدود العراق أنه المنقذ والمخلص من ظلم الأتراك واستبدادهم فطلبوا إليه المسير إليه ليخلصهم ووعدوه بالمؤازرة والتأييد، كما دعاه لدخول بغداد الخليفة العباسي "المستكفي بالله" ليخلصه من أمير الأمراء توزون وزمرة القادة الأتراك، وانتهز الأمير أحمد بن بويه هذه الفرصة واستأذن أخاه الأكبر علياً، وزحف بجيوشه نحو بغداد واحتلها سنة334هـ=945م واستقبله الخليفة العباسي " المستكفي" استقبالاً حافلاً، وقلده منصب أمير الأمراء ومنحه لقب"معز الدولة"، كما منح أخاه علياً "عماد الدولة" وأخاه الحسن لقب "ركن الدولة" وجدد "معز الدولة " البيعة للخليفة العباسي.

على أن علاقة البويهيين بالخليفة العباسي المستكفي لم تلبث أن ساءت بعد شهر واحد فقط بسبب سوء الظن وانعدام الثقة، إذ اتهم " معز الدولة أحمد بن بويه " الخليفة المستكفي أنه يعمل سراً على إزالته وإعادة الأتراك إلى الحكم فخلعه وبايع ابن عمه "المطيع"بالخلافة، وهكذا حل البويهيون محل الأتراك في حكم فارس ولعراق، ولم تستفد الخلافة العباسية شيئاً م هذا التغيير،

إذ ظل الخلفاء كما كانوا من قبل عهد النفوذ التركي خلفاء بلا نفوذ ليس لهم من السلطة شيء، بينما استأثر البويهيون بالحكم واتخذوا لقب ملك أو شاهنشاه بدلاً من لقب أمير الأمراء الذي كان سائداً في العصر التركي السابق.

لم تقتصر سياسة معز الدولة على الحد من نفوذ الخليفة في بغداد بل عمل على إقرار نفوذه في البلاد التابعة للخلافة، فحارب الحمدانيين في الموصل، وانتزع البصرة من البريديين، وبقي "معز الدولة بن بويه" على رأس السلطة في بغداد 22سنة مد فيها نفوذه على جميع بلاد العرق حتى خطب له في بلاد الشام، وظل معز الدولة يعمل على توطيد نفوذه ومد سلطانه إلى مناطق جديدة حتى وافته المنية في شهر ربيع الآخر سنة 356هـ، فخلفه ابنه "عز الدولة بختيار".

انصرف بختيار إلى اللهو واللعب وساءت الأمور بينه وبين الخليفة المطيع وولى "الطائع " الخلافة، وترد الأحوال الاقتصادية في العراق، مما أثار حنق المخلصين من رجال دولته، وثار الجند الأتراك مطالبين بأرزاقهم، ووقعت فتن كثيرة بين السنة والشيعة، فاضطربت أمور البلاد، ولم يعد بختيار قادراً على ضبط الأمور فاستنجد بعمه"الحسن ركن الدولة" صاحب الري وهمذان وأصفهان، وبابن عمه " عضد الدولة بن ركن الدولة: الذي كان يحكم بلاد فارس خلفاً لعمه المتوفي "عماد الدولة"، فانتهز الفرصة "عضد الدولة" ودخل بغداد وخلع ابن عمه وقتله وجلس مكانه.

- **ملوك بنى بويه:**

- **عماد الدولة:**

هو علي بن بويه مؤسس الأسرة البويهية وأول ملك للدولة البويهية وكان عماد الدولة رئيساً للدولة البويهية ويُلقب ملكاً، مقيما في عاصمته شيراز، وكان أخوه معز الدولة ممثلاً له في بغداد، وأخوه ركن الدولة ممثلاً له في إقليم الجبل وعاصمته الري، ويلقب كل منهما بالأمير، وظلت هذه الألقاب حتى زوال الدولة البويهية.

كانت الأمور مستقرة أيام الدولة، ولكن من سوء حظ الأسرة البويهية أن عماد الدولة لم يعمر طويلاً فقد مات بعد أربع سنوات من استيلاء البويهين على بغداد، قبل أن يتيح للبويهيين الوقت الكافي لتنظيم الوضع الجديد تنظيماً تاماً ومات سنة 338هـ دون أن يترك وريثاً للعرش جرت أمور البويهيين على طريقة قبلية غير منظمة.

- **ركن الدولة:**

هو الحسن بن بويه الأخ الأوسط لعماد الدولة، ولما مات عماد الدولة دون ابن يرثه آلت رياسة الدولة البويهية إلى ركن الدولة لكنه لم ينتقل على عاصمة الدولة "شيراز" إنما بقي في عاصمته "الري" التي أصبحت عاصمة للدولة ولم يكن ركن الدولة في قوة أخيه الراحل فقد خرج عليه ابنه " عضد الدولة" الذي كان يحكم شيراز خلفاً لعمه عماد الدولة، فقد كان من واجبه أن يستشير أباه ركن الدولة في كل شيء لأنه أصبح هو الملك وكبير الأسرة لكن الذي حدث عكس ذلك، فقد اتجه عضد الدولة ببصره إلى بغداد وأراد أن يجمع لنفسه السلطة في بلاد فارس والعراق في وقت واحد وحاول أكثر من مرة أن يقاتل ابن عمه "بختيار بن معز الدولة"

ويستولي على بغداد لكن أباه ركن الدولة كان يردعه ويهدده باستخدام القوة إن لزم الأمر فارتدع عضد الدولة عن أطماعه، ولكنه أخذ يترقب الفرصة المناسبة، ومات ركن الدولة سنة 366هـ.

- **عضد الدولة:**

لما مات ركن الدولة آلت رياسة البيت البويهي إلى ابنه "عضد الدولة" ولم يكد يمض عام واحد على وفاة والده حتى سار إلى بغداد واحتلها وقتل ابن عمه "عز الدولة بختيار" وذلك عام 367هـ، وبذلك أصبح عضد الدولة الوارث الوحيد لملك بني بويه واجتمعت له بذلك رياسة البيت البويهي، واستقر في بغداد واتخذها عاصمة له فضلاً عن كونها عاصمة الخلافة أيضاً.

بلغت الدولة البويهية في عهد عضد الدولة أوج عظمتها في عهد عضد الدولة، فقد نجح هذا الملك في الظهور على إخوته وأبناء عمومته ووحد العراق وفارس تحت نفوذه، كذلك حرص على توثيق علاقته بالخليفة العباسي الطائع، وفي الوقت نفسه حرص عضد الدولة على توثيق علاقته بالخليفة الفاطمي العزيز بالله في مصر، وقد قام عضد الدولة بعدة إصلاحات داخلية في البلاد التي خضعت لنفوذه مثل: العراق وفارس وكرمان والري وهمذان وأصفهان، واهتم بصفة خاصة بإصلاح أنظمة الري وإنشاء السدود مما ساعد على تقدم الزراعة في أيام البويهيين.

واستطاع عضد الدولة خلال السنوات التي حكمها أن يحقق للدولة العباسية استقراراً وازدهاراً بفضل مشروعاته العمرانية مثل السد العظيم الذي شيده عند مدينة شيراز بفارس ومن الأعمال العمرانية التي تنسب إلى عضد الدولة المستشفى العضدي الذي بناه في بغداد لعلاج المرضى الذي يقول عنه ابن خلكان: "ليس في الدنيا مثل ترتيبه، وقد أعد له من الالآت ما يقصر الشرح عن وصفه".

كذلك اهتم عضد الدولة بتعمير مدينة بغداد، فأعاد بناء ما تهدم من المساجد والأسواق، وأجرة الأموال على الأئمة والمؤذنين والعلماء والقراء والغرباء والضعفاء الذين يأوون إلى المساجد، وأجبر أصحاب أملاك الخراب بعمارتها، وأقام الميادين والمنتزهات فامتلأت هذه الخرابات بالزهر وأصلح الطريق من العراق إلى مكة. وعلى الرغم مما اشتهر به عضد الدولة من حسن السياسة، وحب الإصلاح، إلا أنه رمي بالقسوة وسفك الدماء، والغدر بمن أمنه.

وتوفي عضد الدولة في شهر شوال سنة 372هـ وله من العمر 48 سنة، ودفن عند مشهد الإمام علي بن أبي طالب في الكوفة، بعد أن حكم دولة بني بويه من بغداد حوالي ست سنوات.

- **أبناء عضد الدولة:**

عندما توفي عضد الدولة خلفه ابنه الأكبر ولقبوه "صمصام الدولة" وأقام في بغداد، واعترف به الخليفة العباسي الطائع ولقبه "شمس الملة "، على أن صمصام الدولة لم ينعم بالحكم سوى أربع سنوات إذ خرج عليه أخوه"شرف الدولة " الذي كان يحكم أصبهان والري وشيراز وسجنه في إحدى قلاعها، فاضطربت أمور بني بويه خاصة عندما دب الخلاف بينه وبين عمه فخر الدولة، وعلى الرغم من أن شرف الدولة أمضى فترة حكمه في حل هذه

المشكلات لكن الموت عاجله دون أن يتمكن من ذلك إذ توفي بعد حوالي ثلاث سنوات من حكمه.

خلف شرف الدولة أخاه " بهاء الدولة وضياء الدولة"، الذي استطاع القضاء على ثورة عمه"فخر الدولة"، واستمال الأتراك الذين كانوا حوله، وعمل على إضعاف نفوذ الديلم حتى يتحقق التوازن في دولته، وواجهته مشكلة أخرى إذ تمكن أخاه "صمصام الدولة" من الفرار من سجنه في شيراز وأعد جيشاً كيراً واستولى على بعض البلاد في فارس لكن بهاء الدولة أرسل أليه وصالحه ثم احتال عليه حتى تمكن من القبض عليه وقتله، وسرعان ما ساءت العلاقة بين بهاء الدولة والخليفة الطائع وخلعه وبايع "القادر بالله" بالخلافة.

وازداد نفوذ بهاء الدولة في عهد الخليفة القادر فاستبد بالسلطة من دونه، لكن العلاقة بين الرجلين كانت تقوم على الصفاء والمودة بدليل زواج الخليفة من "سكينة" ابنه بهاء الدولة.

والخلاصة أن بهاء الدولة كان كما وصفه أبو المحاسن: "ظالماً غشوماً، سفاكاً للدماء، حتى أن خواصه كانوا يهربون من قربه، وجمع من المال ما لم يجمعه أحد من بني بويه، ولم يكن في ملوك بني بويه أظلم منه ولا أقبح سيرة " وتوفي بهاء الدولة سنة 403هـ/1012م بعد أن حكم أربعاً وعشرين سنة.

- **انهيار الدولة البويهية:**

بعد وفاة بهاء الدولة تعاقب أبناءها على الحكم فأضعفتهم الحروب التي قامت بينهم فبدلاً من أن يتحد الإخوة البويهيون أمام السلاجقة أعطوا للعدوفرصة أن يدخل إلى عقر دارهم، ومما زاد في ضعف الدولة البويهية والخلافة العباسية أيضاُ ظهور "أبو الحارث البساسيري" أحد قادة بني بويه الأتراك، فقد أزداد نفوذ هذا القائد في زمن الملك الرحيم،حتى أصبح الخليفة العباسي والملك البويهي معه مسلوبي السلطة، ضعيفي الجانب، وسرعان ما انتشر نفوذه في العراق والأهواز ونواحيها، وجبى الأموال وأصبح الخليفة العباسي القائم لا يقطع أمراً دون الرجوع إليه، وكان الخليفة يدرك أن البساسيري شيعي المذهب على علاقة بالخلافة الفاطمية وأنه يسعى للقضاء على هذا الخطر، استنجد بالأتراك السلاجقة السنة الذي ظهروا في خراسان، فاتصل بالسلطان السلجوقي "طغرلبك" وحرضه على دخول بغداد، ليخلصه من سيطرة البساسيري والملك الرحيم الشيعة، فاستجاب طغرلبك للنداء وجهز جيشه ودخل بغداد ملوك عام447هـ=1055م، وفر البساسيري والملك الرحيم من بغداد، وهكذا قضى طغرلبك السلجوقي الملك الرحيم آخر ملوك البويهيين، وزالت الدولة البويهية إلى الأبد.

- **أسباب نهاية الدولة البويهية:**

مما سبق دراسته يتبين لنا أن هناك عوامل كثيرة إلى انهيار الدولة البويهية منها:

- إن البيت البويهي لم يوجد قاعدة ثابتة لرئاسة الدولة، فكان إذا مات الملك البويهي سرعان ما يدب النزاع بين أفراد بني بويه كل منهم يريد الوصول إلى رئاسة البيت البويهي مستجيبين لطبيعتهم البدوية المتبربرة التي تعتبر المُلك مُلكاً خاصاً للملك له أن يقسمه كيف يشاء لا كما

تشاء ظروف استقرار الدولة، فالأرض هنا غير ثابتة وليس لها حدود معينة، وإنما يمتد المُلك بقدر قوة المالك وسيوفه وجيشه.

- إن ملوك بني بويه ضيقوا على أنفسهم أفقهم فلم يلتفتوا إلى الحوادث الكبيرة في العالم الإسلامي والبلاد المجاورة، فلم يشاركوا الدول والشعوب الإسلامية في الدفاع عن الثغور أمام أعداء الإسلام وشغلتهم أنفسهم وصراعهم مع الدول الإسلامية المجاورة لتثبيت حكمهم ، فرضوا لأنفسهم أن يكونوا مملكة إقليمية، ولم يحرصوا أن يكون لهم دور الصدارة في العالم الإسلامي، وبذلك لم ينالوا حب المسلمين وعطفهم، ولعل ذلك هو السبب الذي حدا بالمؤرخين إلى ذم بني بويه واتهامهم بإذلال الخلافة العباسية، ثم كان ذلك سبباً في قصر عمر دولتهم.

اعتماد بني بويه على الأتراك: فقد اعتمد بني بويه في جيوشهم وإدارة دولتهم كثيراً على الأتراك، ووصل هؤلاء الأتراك إلى مناصب عالية في الدولة، ومعروف أن الأتراك لم يكن همهم إلا الحصول على المال ولذلك لم يخلصوا إلا لمن يدفع أكثر فضلاً عن مشاكلهم الكثيرة مما كان له أسوأ الأثر في ضعف الدولة البويهية.

- صغر سن ملوك بني بويه: ويمكن ملاحظة ذلك من استقراء ملوك بني بويه إذ نلاحظ أن معظمهم كان صغير السن، فسلطان الدولة أبو شجاع كان عمره 12عامًا، ومشرف الدولة كان عمره 18 عمًا، وأدى صغر سن هؤلاء الأتراك إلى تدخل النساء وكبار رجال الدولة في الحكم، وانصراف الملك البويهي إلى حياة اللهو والترف وترك أمور الحكم لغيره مما أدى إلى الإسراع في ضعف الدولة البويهية وانهيارها.

- كثرة الفتن والثورات في عهد بني بويه: فقد خرج عليهم ثائرون كثر استنزفوا موارد الدولة في حربهم، ومن هؤلاء "قرواش بن المقلد العقيلي" أمير بني عقيل الذي آلت إليه السيادة في الموصل والأنبار والمدائن والكوفة، مما أضطر بهاء الدولة البويهي إلى محاربته، وكذلك ثورات الديلم، وثورات الجند، وهذا فضلاً عن النزاعات الداخلية الكثيرة التي كانت تقوم بين أمراء بني بويه طمعاً في السلطة.

- البويهيون والخلافة العباسية:

كان بني بويه شيعة على مذهب الزيدية، فلما دخل" معز الدولة أحمد بن بويه" بغداد سنة334هـ/945م لم يتورع من التعدي على الخلافة العباسية السنية والانتقاص من حقوق الخلفاء، فعمل على تجريد الخليفة العباسي من حقوقه السياسية، ولم يترك له من أمر الحكم شيء وهكذا أصبح الخلفاء العباسيون ألعوبة بأيدي البويهيين يولونهم متى شاءوا ويعزلونهم متى شاءوا، ولم يتركوا لهم من أمر الحكم شيئاً إلا بعض الأمور الدينية البسيطة مثل: إمامة الصلاة، تحديد المساجد التي تقام فيها صلاة الجمعة، إقرار تعيين القضاة، ذكر أسمائهم في الخطبة يوم الجمعة ونقش أسمائهم على السكة.

وفكر البويهيون في إزالة الخلافة العباسية وإقامة خلافة علوية مكانها، ولكنهم عدلوا عن الفكرة خوفاً من وقع الاضطرابات والفتن ضدهم، وانقلاب الناس عليهم لأنهم جميعاً من أهل السنة، فأبقوا الخلافة رمزاً وحكموا البلاد بشرعية من الخلفاء العباسيين.

وبلغ من استهتار البويهيين بالخلافة العباسية أن معز الدولة لما فتح العراق وخلع الخليفة المستكفي وبايع المطيع لله حجر على أملاكه وقرر له كل يوم مائة دينار نفقة.
والخلاصة أن الخلافة العباسية سقطت هيبتها نهائياً.

- **الدولة الغزنوية:**

ذكرنا أن الدولة السامانية اعتمدت في قوتها العسكرية على الجنود الأتراك، وكان من أبرز الأتراك الذين كان لهم شأن عند السامانيين "البتكين" الذي كان غلاماً للأمير عبدالملك بن نوح الساماني، ثم ترقى في المناصب حتى أصبح حاجباً في بلاط الأمير ثم أصبح حاجباً للحجاب، وكانت كلمة "البتكين" مسموعة في البلاط الساماني فقد اجتمعت للرجل صفات حسنة كثيرة مثل: الشجاعة، المروءة، التقوى،، سداد الرأي وحسن المعشر، فعلا شأنه حتى أن الوزير صار لا يقطع أمراً ولا يبرم عقداً دون استشارته، بل إن سلطته طغت على سلطة الأمير عبد الملك، فخشى الأمير قوة نفوذه فأبعده عن عاصمة دولته فعينه قائداً لجيش خراسان 349هـ/961م.

- **نشأة الدولة الغزنوية (351-582 هـ/962-1163 م):**

لما توفي الأمير عبد الملك وتشاور الأمراء السامانيون فيمن يولونه خلفاً له، وأجمعوا على تولية أخيه "أبو صالح منصور بن نوح" لكن البتكين رفض تولية منصور لصغر سنه وأشار بتولية أحد أبناء الأمير المتوفي، ومن هنا نِشأت العداوة بين الأمير الجديد منصور والبتكين في خراسان، ومما زاد في العداوة بين الرجلين السعاة والمفسدين الذين أوغروا صدر الأمير منصور وقالوا له: إن الحكم لن يستقيم لك حتى تقتله وتصادر ماله.

فكت الأمير منصور إلى البتكين يستدعيه إلى بلاطة في بخارى، وأمر والي خراسان بعزله عن قيادة الجيش، لكن البتكين رفض طاعة الأمير لأنه علم بنواياه، وتجنبا للمشاكل عزم البتكين على ترك خراسان والمغادرة نحو الهند وسار مع غلمانه وحاشيته حتى وصل مدينة "بلخ "، لكن الأمير منصور اعتبر هذا التصرف من البتكين خروجاً عليه فصمم على إخضاعه بالقوة فأرسل وراءه جيشاً مكوناً من ستة عشر ألف جندي لكن قوات البتكين انتصرت على الجيش الساماني وأسرت قائده، وغنمت من غنائم كثيرة، وذلك سنة 351هـ/962م، وأطلق البتكين سراح القائد الساماني وحمله رسالة للأمير منصور جاء فيها: إنني لن أعوج إلى بخارى بأي صورة من الصور وسوف أقوم بخدمتكم من بعيد، ثم راح البتكين متوجهاً إلى الهند واتخذ من مدينة "غزنة" قاعدة لو واستولى على بعض المناطق المجاورة مكوناً مملكة خاصة له، ولما بلغت انتصارات البتكين فصالحه على أن تصير له "نيسابور" مقابل أن يؤدي له خراجا سنوياً قدره خمسون ألف دينار، وأصبح البتكين قوة لا يستهان بها ويعتبر بذلك مؤسس الدولة الغزنوية.

لم يعمر بعدها البتكين طويلاً فقد توفي البتكين أثناء جهاده في الهند سنة 352هـ /963م فخلفه ابنه"أبو إسحاق إبراهيم "، لكنه كان ضعيف الشخصية فلم يستطع السيطرة على الأمور، فثار عليه أهل غزنة، لكنه أخمد هذه الثورات وظل يحكم غزنة إلى أن توفي بعد سنتين من حكمه.

بعد موت أبو إسحاق اجتمع أعيان المملكة وقادتها وبايعو "بلكاتكين" أحد قادة الترك التابعين لألبتكين أميراً لهم، وبعد وفاته سنة 364هـ/975م بايع أهل غزنة "بيري" أميراً لهم فحكم البلاد باسم السامانيين كسابقيه من الأمراء، لكنه لم يستطع ضبط الأمور بسبب ميله إلى اللهو والشرب فأصبح مكروهاً من رعاياه، فثار عليه الجند وخلعوه بعد سنتين من توليته الحكم.

- **الأمير سبكتكين:**

اجتمع أعيان المملة بعد موت بيري وقرروا انتخاب"سبكتكين" حاكماً لهم لأنه أحد موالي البتكين وزوج ابنته، ولاشتهاره بالشهامة والإقدام، ولما عرفوه عنه من قوة الدين وتمام العقل، وهكذا وصل سبكتكين إلى عرش غزنة وتمت له البيعة في شهر شعبان سنة366هـ/977م، واستمر سبكتكين مقيما في عاصمته غزنة واستطاع بحسن سياسته وبعد همته اكتساب محبة الرعية وأمراء البلاد المجاورة، واعترف به الخليفة العباسي" الطائع لله" ولقبه "ناصر الدولة" وبعث له الخلع والهدايا وعقد البيعة، فأصبح حكمه شرعياً.

سار سبكتكين نحو بلاد الأفغان واحتل منطقة "بست" ثن أخذ يوسع حدود دولته حتى احتل معظم أراضي أفغانستان وأسس مدينة "بيشاور" الحالية في باكستان واستولى على مناطق واستولى على مناطق السند والملتان وجبال الغور، وقد أفزعت فتوحات سبكتكين أحد ملوك الهند المسمى "جيبال" الذي يحكم شمال غرب الهند فأخذ يعد العدة لحرب سبكتكين، لكن سبكتكين توجه بجيوشه لغزو الهند سنة 366هـ/977م فحارب جيبال ودخل بلاده واستولى على بعض القلاع وسيطر على مدينة "كابل" حتى أجبر جيبال على طلب الصلح، وهكذا وسع الأمير سبكتكين حدود بلاده ووطد الأمن فيها حتى اعتبره المؤرخين المؤسس الحقيقي للدولة الغزنوية، وعلى الرغم من استقلاله الفعلي فقد ظل يظهر الولاء والطاعة للسامانيين ويحكم البلاد باسمهم.

وقد حكم الأمير سبكتكين الدولة الغزنوية عشرين سنة أقام خلالها إمبراطورية غزنوية في جنوب آسيا امتدت من شمال الهند إلى خراسان، وكان سبكتكين على درجة عالية من قوة الجسم والخلق حتى وصفه العتبي فقال: "أبي النفس، حمّي الأنف، جريء القلب، قوي البطش، كريم السجايا، وضيء التدبير، كبير الهمة، كثير الحكمة ".

وكان سبكتكين حاكماً عادلاً حتى أن المؤرخ الكبير البيهقي كان يلقبه " سبكتكين العادل" كما كان حسن الاعتقاد، قوي الإيمان، محباً للخير، ذا مروءة وشهامة فضلاً عما عرف عنه من مراعاة الناس ومداراتهم.

وأخيرا توجه الأمير سبكتكين إلى شمال غرب الهند حتى وصل مدينة "بلخ " فاحتلها وأقام بها، لكن المرض أصابه فأراد الرجوع إلى غزنة فلم يستطع لأن الموت كان أسرع منه فتوفي في الطريق إلى غزنة في شعبانه387هـ/966م ونقل تابوته إلى غزنة ودفن هناك.

- **السلطان محمود الغزنوي:**

عهد الأمير سبكتكين قبل موته إلى ابنه إسماعيل في الحكم من بعده ولكنه كان ضعيف الرأي والتدبير حتى كادت خزائنه أن تنفذ، فأرسل ألأيه أخاه محمودا – وكان اكبر منه سناً-

يبين له أحقيته بالإمارة بعد أبيه لكن المفاوضان لم تجد نفعا فالتقت قوات الأخوين بظاهر غزنة، وانتصر محمود واستقر على ملك الغزنويين وقبض على أخيه إسماعيل بعد أن حكم سبعة أشهر والسلطان محمود الغزنوي تركي مستعرب ولد غزنة، كان حازماً، سديد الرأي، يجالس العلماء ويناظرهم، وكان من أعيان الفقهاء، فصيحاً، بليغاً ذا همة عالية، حتى عده بعض المؤرخين من أبرز فقهاء الشافعية.

- **أهم أعمال السلطان محمود الغزنوي:**

الاستيلاء على خراسان:

لما كانت الدولة السامانية التي تحكم خراسان وبلاد ما وراء النهر تسير إلى نهايتها تحت ضربات خانات الترك في بلاد ما وراء النهر، وتآمر المغامرين في أقاليم خراسان، فأراد محمود الغزنوي أن يؤمن حدوده الشمالية ليتفرغ لحربه في الهند فبادر بمقاتلة الغزنويين سنة 389هـ واحتل خراسان وقضى على الدولة السامانية فيها واتخذ نيسابور قاعدة له هناك، وخطب للخليفة العباسي " القادر بالله".

الاستيلاء على منطقة سجستان:

كان والي سجستان "خلف بن أحمد" يضمر الشر والحقد للسلطان محمود فسار إليه السلطان سنة 393هـ وأسره وفتح بلاده.

أزال سلطان البويهيين عن الري وبلاد الجبل.

الاستيلاء على بلاد خوارزم ومنطقة قزوين.

مقاتلة الخارجين على الخلافة العباسية:

تتبع السلطان محمود الخارجين على الخلافة العباسية بالنفي أو القتل مثل: الرافضة، الإسماعيلية القرامطة، الجهمية، المشبهة.

حارب الغور: كان الغور وثنيون يسكنون الجبال الوعرة بين هراة وغزنة ويقطعون الطريق ويخيفون السبيل، فحاربهم وانتصر عليهم واحتل بلادهم ونشر الإسلام بينهم فأرسل إليهم جماعة من المسلمين يعملونهم أصول الدين.

فتوحاته في بلاد الهند:

وهي من أهم الأعمال التي قام بها السلطان محمود الغزنوي وخلدت اسمه في التاريخ الإسلامي، فقد وسعت فتوحاته هذه رقعة العالم الإسلامي، وأقامت دولاً إسلامية في الهند، ونشرت الثقافة الإسلامية في تلك البلاد البعيدة، فقد استمرت غزواته على بلاد الهند من سنة392هـ-415هـ غزا الهند 17 مرة وكان يرى في غزواته جهاداً في سبيل الله، فكان ينشر الإسلام حيث حل، فقد فتح كشمير، والبنجاب وجعلها ولاية إسلامية قاعدتها مدينة لاهور، واستولى كذلك على إقليم الكجرات ودخل قاعدتها مدينة سومنات وحطم صنمها الأكبر وحرقه بالنار فضلاً عن آلاف الأصنام الأخرى حطمها حتى أطلق عليه المسلمون "محطم الأصنام".

اتخاذ لقب سلطان:

لما رأى محمود الغزنوي اتساع البلاد التي خضعت له وأن ملكه أصبح كبيراً اتخذ لنفسه لقب "سلطان" بدلاً من الأمير الذي كان يلقب به، فكان بذلك أول أمير تركي اتخذ هذا اللقب، واتخذ هذا اللقب الأتراك في الدولة الإسلامية فيما بعد، فاتخذه حكام السلاجقة والحكام العثمانيون بعذلك.

أما علاقة السلطان محمود بالخلافة العباسية فكانت علاقة جيدة يسودها الصفاء والاحترام، فكان السلطان يخبر الخليفة بكل فتوحاته ويستأذنه في معظم أموره، بل وحارب أعداءه والخارجين عليه، فرضيت عنه الخلافة حتى أن الخليفة القادر بالله لقبه"يمين الدولة وأمين الملة" وأرسل له الخلع والتقليد، وتوفي السلطان محمود الغزنوي سنة421هـ/1030م بعد أن حكم الدولة الإسلامية 23 سنة كانت كلها خير وبركة وانتصارات.

كان السلطان محمود الغزنوي قد أوصى لابنه الأصغر محمد بالحكم بعده، لكن أخاه الأكبر مسعود نازعه في الأمر وقاتله واستقر في الملك مكانه، وسار السلطان مسعود على سياسة أبيه، فأخذ يتوسع في بلاد الهند، ثم اتجه شرقاً فاستولى على مكران، ثم سار إلى خراسان لفتح بلاد العراف.

ومن المشاكل التي وجهها السلطان مسعود بن محمود مشكلة السلاجقة الذين ظهروا في خراسان واستفحل خطرهم بعد وفاة السلطان محمود، وأصبحوا على درجة عالية من القوة بحيث أمكنهم هزيمة السلطان مسعود في معركة "داندانقان" سنة 431هـ/1040م ففقد الغزنويون على أثر ذلك ممتلكاتهم الفارسية.

وفي عام 432هـ وصل إلى الحكم "مودود بن مسعود" فبايعه الناس بالإمارة فأظهر العدل وحُسن السيرة، وسلك سيرة جده السلطان محمود، فأطاعه الناس وكتب إليه أمراء المناطق المجاورة بالطاعة والإتباع، وواصل السلطان مسعود حملاته على السلاجقة في خراسان وغيرها من المناطق حتى وفاته 441هـ/1050م.

ثم تتابع السلاطين الغزنويون بعد ذلك، فقد آل حكم الغزنويين للسلطان" عبدالرشيد بن محمود"، وبعد حكم دام حوالي ثلاث سنوات وصل إلى الحكم في السلطان"فرخ زاد بن مسعود" الذي بقي في السلطة سبع سنوات ومات على أثر مرض عضال أصابه.

- **الدولة الخوارزمية.**

تقع ولاية خوارزم في جهة الشمال من إقليم خوارزم وإلى الشرق من بحر قزوين، وعاصمتها مدينة "الجرجانية"، ولذلك تمتع هذا الإقليم بموقع متميز وحساس فهومفتاح لإقليم ما وراء النهر و لإقليم خراسان.

تنسب هذه الدولة إلى القائد التركي" نوشتكين غرشة" أحد رجال السلطان السلجوقي ملكشاة، وكان لهذا القائد التركي ولد نابه يسمى "قطب الدين محمد "فعهد إليه السلطان ملك شاة بحكم ولاية خوارزم عام490هـ/1097م فاتخذ قطب الدين لقب" خوارزم شاة".

ولما جاء السلطان سنجر إلى خراسان أقر قطب الدين محمد خوارزمشاة على ولاية خوارزم، وحظي خوارزمشاة بحب السلطان سنجر وثقته وتقديره، لما يتمتع به من ورع وتقوى وتفان في

رعاية شئون مواطنيه وولايته، وولائه المطلق للسلطان سنجر حيث كان يساعده في كل غزواته، وظلت مكانة خوارزمشاة تعلوا يوماً بعد بوم لدى بلاط السلطان سنجر حتى توفي سنة 522هـ/1128م.

خلف خوارزم شاة ابنه "أتسز بن محمد" والياً للسلاجقة على خوارزم، وظل أتسز على سياسة أبيه في السمع والطاعة لسلطة السلاجقة في"مرو" عاصمة خراسان، ولما رأى "أتسز خوارزم شاة" ضعف الدولة السلجوقية وتفككها أعلن التمرد على السلطان السلجوقي "سنجر"، ووصلت أنباء تمرده إلى مرو، فسار إليه السلطان سنجر على رأس حملة عسكرية في محرم من سنة 533هـ/1138م فاستعد خوارزمشاة للمواجهة، وجرت معركة بينهما في ضواحي مدينة "هزار أسب" غرب نهر جيحون، فانهزمت قوات أتسز ولاذ بالفرار تجاه إقليم جرجان، ودخل سنجر خوارزم وأعلن خلع " أتسز خوارزم شاة "وعين واليًا بدلاً منه ليدير أمير خوارزم، وعاد سنجر إلى عاصمته مرو، وما أن وصل سنجر إلى بلده حتى ظهر "أتسز خوارزم شاة" مرة ثانية وعاد إلى خوارزم ودخلها، وبمساعدة أهالي المدينة طرد الوالي السلجوقي وعاد إلى عرشه مرة ثانية.

وفي عام 534هـ قام خوارزم شاة بحملة عسكرية ضد بخارى في بلاد ما وراء النهر وقتل واليها السلجوقي وهدم قلعتها، وبعد سنتين هاجم سيده السابق سنجر في عقر داره خراسان مستغلا فرصة غيابه عنها، فاحتل مدينة "سرخس" ثم سار إلى العاصمة:مرو" وحاصرها حتى دخلها عنوة، وبعد ثلاث سنوات دخل مدينة "نيسابور" وقطع الخطبة للسلطان سنجر وخطب لنفسه، ثم غادرها بعد فترة بسيطة إلى ولايته ومعه عدد من علماء خراسان وفقهائها.

وبعد وفاة "أتسز خوارزم شاة"551هـ /1156م خلفه ابنه " إيل أرسلان" الذي أرسل رسالة ولاء وطاعة للسلطان سنجر، ورد عليه سنجر برسالة مماثلة وأرسل له الخلع والهدايا وأقره على ولايته خلفاً لأبيه، ولم يستطع " إيل أرسلان" ضبط الأمور في بلاده، فقد خرج عليه عدد من الأمراء، ودخل في صراع مع القراخطائيون في بلاد ما وراء النهر، ولما توفي خلفه أحد أبناءه حتى آل الأمر إلى " محمد خورازم شاة" سنة596هـ/1200م فاتخذ لنفسه لقب" السلطان علاء الدين خوارزم شاة"، فكانت حدوده من مدينة جند شرقاً حتى شمال إقليم خراسان، أي تشمل إقليم خوارزم وبعض مدن خراسان وبلاد الجبل، وبدأ السلطان علاء الدين بالتوسع في إقليم خراسان، وما أن جاء عام 612هـ/1215م حتى كانت حدود دولته تشم لجميع أراضي إيران فضلاً عن غزنة، وغزا علاء الدين خورازم شاه بلاد ما وراء النهر وقتل عدداً كبيراً من المسلمين، وسفك دماءهم واحتل بعض البلدان هناك، ثم غزا بلاد الجبل وأذربيجان وكرمان ومكران وسجستان، وأصبحت أراضيه تمتد إلى نهر دجلة مجاوراً لأملاك الخليفة العباسي الناصر، وروي عنه أنه كان يرغب في دخول بغداد ولكنه عدل عن فكرته لأسباب خاصة، وهكذا أصبح ملك علاء الدين خورازم شاة يمتد من نهر سيحون شرقاً إلى جلة والخليج العربي غرباً، ومن بحر قزوين وجبال قوقاز شمالاً حتى منابع نهر السند الغربية وسجستان وكرمان جنوباً.

- **السلطان محمد خوارزم شاة والمغول:**

ذكرنا أن الدولة الخوارزمية وصلت إلى حدود نهر سيحون شرقاً وأصبحت مجاورة لدولة المغول، وفي عام 612هـ/1215م أرسل جنكيز خان رسالة إلى السلطان علاء الدين يقول فيها: أنا ملك مشرق الشمس وأنت ملك مغربها، ويقترح إيجاد علاقة ود وعدم اعتداء بين الطرفين، ثن أعقبها برسالة ثانية تحمل نفس المعنى، ويبدو أن السلطان رد عليه برسائل ود مماثلة.

وأخيراً أرسل جنكيز خان قافلة تجارية مكونة من 450 جملاً إلى بلاد المسلمين، لكن أحد الحكام المسلمين التابعين لخورازم شاه والمجاورين لبلاد المغول قتل هؤلاء التجار، ونهب أموالهم، فغضب جنكيز خان وطلاب بالقصاص من الحاكم الخوارزمي الذي قتل التجار، وتوترت العلاقات بين الدولتين، ومما زاد في هذا التوتر وقوع بعض الاشتباكات الحدودية لبن جيوش السلطان خورازمشاة وجيوش جنكيز خان في بعض المناطق.

وفي ربيع الأول من عام 616هـ/1219م جهز جنكيز خان قواته وسار غرباً أراضي الشاه ودخل المغول أراضي المسلمين، وهاجموا المدن الإسلامية في بلاد ما وراء النهر: بخارى وسمرقند وأترار وغيرها، وسقطت هذه المدن بيدهم الوحدة تلو الأخرى، وهرب خورازمشاة باتجاه الغرب فطاردته قوات جنكيز حان فلجأ إلى إحدى جزر بحر قزوين واختفى بها ثم مات هناك بعد سنة، فخلفه في قتال المغول ابنه "جلال الدين منكبرتي" ،وواصلت قوات جنكيز خان التوغل في إقليم خراسان، وكانت أثناء ذلك ترتكب من المجازر ما يشيب لها الوالدان، ومن مجازرهم أنهم ذبحوا سكان مدينة "بلخ" عن بكرة أبيهم وقتلوا القطط والكلاب حتى لم يعد بها من يتنفس، ثم غزا جنكيز خان بلاد الغور والطالقان، وقابل جيوش السلطان "جلال الدين منكبرتي" في معركة "بروان" فهزمه وهرب جلال الدين إلى الهند، وهكذا أصبحت جميع أراضي الدولة الخوارزمية تحت حكم المغول، حتى أصبحوا مجاورين للدولة العباسية ولكن السلطان جلال الدين منكبرتي، لم يكف عن قتال المغول وأمضى بقية حياته في قتالهم فتارة ينتصر عليهم وتارة ينتصرون عليه، وأخيراً انتصر عليه المغول نصراً حاسماً وطاردوه حتى دخل بلاد الأكراد حيث قُتل هناك سنة 628هـ=1231م وانتهت بموته الدولة الخوارزمية.

المحاضرة السابعة.

عنوان المحاضرة: الدويلات المستقلة عن الخلافة العباسية

(مصر وبلاد الشام)

*** الدولة الحمدانية (292-392 هـ/905-1002 م):**

- الحمدانيون في الموصل:

ينتسب الحمدانيون إلى " حمدان بن حمدون" من قبيلة تغلب العربية الأصل التي كانت تقيم بضواحي مدينة الموصل، وقد كان لحمدان دور في الحوادث السياسية التي وقعت في المدينة، فقد خرج في الموصل عام 272هـ واستولى عليها، فحاربه الخليفة العباسي " المعتضد بالله " وانتصر عليه ففر حمدان من الموصل تاركاً ولده " الحسين " والياً عليها، لكن الخليفة تتبع حمدان حتى قبض عليه فسجنه في بغداد.

أم

ا الحسين بن حمدان فقد اظهر الطاعة للخليفة العباسي وصار من قوادة المقربين فأنعم عليه الخليفة وعلى إخوته، وتشفع الحسين لأبيه حمدان فأخرجه الخليفة من السجن وأمر بالتوسعة عليه والإحسان إليه، وأصبح الحمدانيون بعد ذلك من قادة الجيوش العباسية المبرزين وحاربوا القرامطة والخوارج وأعداء العباسيين.

ولما جاء الخليفة العباسي المقتدر قرب بني حمدان إليه فقلد " أبا الهيجاء عبد الله بن حمدان "منطقة الموصل سنة 292 هـ، وولى أخاه إبراهيم بن حمدان منطقة ديار ربيعة، وولى أخاه سعيد بن حمدان منطقة نهاوند، وقلد غيرهم من بني حمدان مناصب مهمة في الدولة، لكن أبا الهيجاء أناب عنه ابنه الحسن في حكم الموصل فسطع نجم " الحسن بن عبد الله بن حمدان" ثم استدعاه الخليفة العباسي " المتقي لله" إلى بغداد ولقبه ناصر الدولة وقلده منصب أمير الأمراء، فضلاً عن إمارة الموصل التي كان يتولاها من قبل، وقام أمير الأمراء "الحسن ناصر الدولة" بإصلاح السكة، لكنه اشتط في فرض الضرائب على الناس فغلت الأسعار، وقل الطعام واللباس في الأسواق، وضيق على الخليفة المتقي نفقاته، وانتزع منه ضياعه، فثار بذلك حتى الخليفة وسخط الناس عليه، و كذلك حارب ناصر الدولة البريديين والبويهين وكان يساعده في حروبه أخوه " سيف الدولة أبو المحاسن علي" إذ كان الساعد الأيمن له، وفي أحد الأيام خرج ناصر الدولة إلى الموصل فانتهز الخليفة الفرصة فاستنجد بالقائد " توزون التركي" وسهل له دخول بغداد وقلده منصب أمير الأمراء بدلا من ناصر الدولة، فلم يستطع زعماء الحمدانيين العرب

المكوث في بغداد، فعادوا إلى الموصل، واستمر ناصر الدولة يحكم الموصل إلى أن مات سنة 358هـ/969م.

تولى " أبو تغلب الغضنفر" حكم الموصل بعد أبيه ناصر الدولة، لكن الضعف أصاب الدولة الحمدانية في عهده بسبب وفاة أبيه ناصر الدولة، وتفرق إخوته وانقسامهم شيعاً وأحزابا متنازعين على السلطة، فانتهز البويهيون هذه الفرصة فاستولى "عضد الدولة" البويهي على الموصل، وميافارقين، وديار بكر، ومضر سنة 367هـ/978م من أبي تغلب الحمداني، وتوجه نحو دمشق لاحتلالها لكنها صمدت في وجهه وامتنعت عليه.

وبعد وفاة أبي تغلب الحمداني خلفه أخواه " أبو طاهر إبراهيم، وأبو عبد الله الحسين " فتمكنا من استعادة الموصل بعد عشر سنوات من احتلالها من قبل البويهين، لكنهما لم يستطيعا الاحتفاظ بها أكثر من سنة، فطمع الأكراد سنة، فطمع الأكراد في بلاد الحمدانيين فهاجمهم القائد " أبوعلي بن مروان الكردي" صاحب ديار بكر وتمكن من الانتصار عليهم فاحتل الموصل وما تبقى من ديارهم وقضى على استقلالهم.

- **الحمدانيون في حلب:**

بعد أن استولى الأكراد على الموصل وقضوا على الدولة الحمدانية فيها استطاع " سيف الدولة الحمداني أبو المحاسن بن علي" الفرار والاستيلاء على حلب من حاكمها الإخشيدي سنة 333هـ/945م، ثم احتل دمشق أيضا، لكن الإخشيد والي مصر أرسل جيشاً حارب الحمدانيين وانتصر عليهم واسترجع دمشق ودخل حلب عاصمة الحمدانيين، وعلى الرغم من انتصار الإخشيد إلا أنه صالح الحمدانيين وتركك لهم حلب وما يليها من بلاد الشام شمالاً، واحتفظ هو بدمشق وتعهد أن يدفع لهم جزية سنوية مقابل احتفاظه بدمشق، ولعل الإخشيد كان يهدف من أبرام الصلح مع الحمدانيين بهذه الصورة رغم انتصاره عليهم إلى أن يُبقي الدولة الحمدانية حصناً منيعاً يكفيه مئونة محاربة البيزنطيين على الثغور، لكن هذا الصلح لم يدم طويلاً فبعد موت الإخشيد عام 334 هـ استولى سيف الدولة الحمداني على دمشق ثم سار الرملة بفلسطين لغزو مصر، لكن كافور الإخشيدي سار إليه وانتصر عليه ووقع معه معاهدة على نفس شروط المعاهدة السابقة ماعدا الجزية فقد أوقف دفعها.

وقد امتاز عهد سيف الدولة الحمداني بكثرة حروبه مع البيزنطيين، حتى يقال أنه غزا بلادهم المجاورة لبلادة أربعين غزوة، وازدهر عهد سيف الدولة كذلك بطائفة من مشاهير العلماء والكتاب والشعراء: كأبي الفتح عثمان بن جني النحوي، والشاعر أبي الطيب المتنبي، والشاعر أبي فراس الحمداني ابن عم سيف الدولة، وأبن أخيه الشاعر الحسين بن ناصر الدولة، بل إن سيف الدولة نفسه كان أديباً وشاعراً مجيداً، وظل سيف الدولة يحكم الدولة الحمدانية في حلب ثلاثاً وعشرين سنة ثم توفي سنة 356هـ/967م وحمل تابوته إلى " ميافارقين" ودفن هناك وكان عمرة ثلاثا وخمسين سنة رحمه الله تعالى.

وبعد وفاة سيف الدولة تولى ابنه " سعد الدولة" لكن الضعف بدأ يدب في جسم الحمدانيين في حلب فقد قتل خاله الشاعر المشهور بأبي فراس الحمداني وثار قرعويه غلام أبيه سيف

الدولة واستولى على حلب مدة ست سنوات، وأغار الروم البيزنطيون على حمص وعاثوا فيها فساداً، لكن الأمر الذي زاد الحمدانيين ضعفا على ضعف أن النزاع الذي قام بينهم وبين قادتهم فأخذ سعد الدولة يستعين بالروم تارة، ويستعين قادته بالفاطميين تارة أخرى فأصبحت الدولة على حافة الانهيار، واستمر الوضع كذلك إلى أن توفي سعد الدولة سنة 381هـ وكان لسعد الدولة ولدان هما: سعيد الدولة، وأبي الهيجاء، وأختهم ست الناس ولما كان أبناؤه صغاراً فقد أوصى بهم وزيره " لؤلؤ الخادم " الذي طمع بعرش الدولة الحمدانية فأخذ يحيك المؤامرات حتى تمكن من قتل سعيد الدولة وأخته ست الناس وحكم الدولة الحمدانية باسم ولدي سعيد الدولة، ثم قبض عليهما وأرسلهما للخليفة الفاطمي في القاهرة وبقي هويحكم باسم الدولة الفاطمية حتى وفاته، فخلفه ابنه " منصور" فاعترف بسلطان الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله وخطب له، فلقبه الخليفة الفاطمي " مرتضى الدولة" وبالتالي دخلت البلاد في حوزة الدولة الفاطمية وقضي على الدولة الحمدانية في حلب.

- الحمدانيون والخلافة العباسية:

رأينا كيف بدأت الإمارة الحمدانية بالثورة على العباسيين ثن أصبحت بعد ذلك تساعد العباسيين وتعمل في خدمتهم، وقد وقف الحمدانيون بحزم في وجه المتسلطين على الخلافة من أمراء الأمراء وغيرهم وقد كان العراق يمثل الجبهة الخلفية للحمدانيين في مواجهتهم مع الروم لذلك كان يهمهم أن يبقى العراق قوياً مستقراً، وكان الحمدانيون هم القوة التي تلجأ إليها الخلافة العباسية إذا ضاقت بها الأحوال في العراق وتعرضت للخطر، فقد لجأ الخليفة العباسي " المتقي لله " إلى الحمدانيين فاراً من قوات البريدي وناصره الحمدانيون وأعادوه إلى حاضرته بعد أن طردوا البريديين، وتولى " الحسن بن عبد الله الحمداني إمرة الأمراء في بغداد، ورضي خلفاء بني العباس عن أمراء الحمدانيين فأطلقوا عليهم الألقاب مثل: سيف الدولة، ناصر الدولة وغيرها، والخلاصة أن العلاقة بين الخلفاء العباسيين والأمراء الحمدانيين قامت على المودة والاحترام وحسن الجوار.

- الحمدانيون والروم البيزنطيين:

لاشك أن الدور البراق الذي قام به الحمدانيون هو جهادهم ضد الروم البيزنطيين فهو الذي أظهرهم في العالم الإسلامي كقوة لها فاعليتها واحترمها، وفي الحقيقة أن الظروف كانت مواتية لظهور الحمدانيين هذا الظهور البراق،واحتلالهم مكانة كبيرة في نفس العالم الإسلامي، واستحقاقهم الثناء الجميل الذي كاله الشعراء لهم، وكان سيف الدولة الحمداني هو فارسهم بلا منازع في هذا الجهاد العظيم ضد البيزنطيين مما دفع المؤرخ المشهور الثعالبي إلى القول عنه: "كان غرة الزمان وعماد الإسلام، ومن به سداد الثغور وسداد الأمور، وكانت وقائعه في عصاه العرب تكف بأسها وتنزع لباسها، وتفل أنيابها وتذلل صعباها، وتكفي الرعية سوء آدابها، وغزواته تدرك من طاغية الروم الثأر، وتحسم شرهم ، وتحسن في الإسلام الآثار".

وقد ظلت الدولة الحمدانية تقوم بواجب الجهاد ضد البيزنطيين حتى كانت نهاية هذه الدولة على الفاطميين كما أسلفنا.

- **الدولة الطولونية (254-292 هـ/868-905 م):**

- أحمد بن طولون:

أحمد بن طولون مؤسس الدولة الطولونية تركي الأصل، كان أبوه أحد الأتراك الذين أرسلهم ولاة بلاد ما وراء النهر والمناطق الشرقية ضمن هداياهم إلى دار الخلافة العباسية، ولد أحمد بن طولون في بغداد وتربى فيها ونال حظاً من الثقافة الإسلامية كان لها أثر كبير في حياته السياسية فيما بعد.

كان والي مصر من قبل العباسيين هو"بايكباك" التركي لكنه وكعادة الولاة الأتراك أقام في بغداد ولم يذهب إلى ولايته وإنما أرسل من ينوب عنه في حكمها فأرسل عدة أشخاص لهذا الغرض وكان من بينهم أحمد بن طولون، ووصل أبن طولون إلى مصر نائبا عن بايكباك في أمور الصلاة وله الحاضرة فقط، وكان مع ابن طولون ولاة آخرون يحكمون جهات مصر المختلفة مثل: إسحاق بن دينار على الإسكندرية ، وأحمد بن عيسى الصعيدي على برقة، وعلى القضاء بكار بن قتيبة، وعلى البريد شقير الخادم، وعلى خراج مصر كلها أحمد بن المدبر، وهكذا كانت سلطات أحمد بن طولون على مصر محدودة.

كان أحمد بن طولون رجلاً طموحاً يطمع في الاستقلال بحكم مصر كلها وجعلها ولاية نابعة له تحت سيطرة الخلافة العباسية، ثم يتخذ من مصر قاعدة له ليقيم إمارة إسلامية كبرى، ثم يجعل الإمارة الإسلامية وراثية في أبنائه من بعده، ولتحقيق هذه الغاية بدأ يسير بخطوات محسوبة متتابعة، ولكن كان أمام ابن طولون عقبات يجب تذليلها ومشاكل يجب حلها، فقد كان سلطانه على مصر محدوداً إذ تقلد قصبة البلاد دون غيرها، وكان هناك منافسون له في حكم مصر أخطرهم أحمد بن المدبر عامل الخراج الذي دأب على الإيقاع به وتهديد مركزه في دار الخلافة، والمشكلة الأكبر أنه كان يحكم البلاد باسم "بايكباك" الذي يستطيع عزلة متى شاء، هذا فضلاً عن الفتن التي يثيرها الخوارج والعلويين في مصر.

وقد ساعدت الظروف احمد بن طولون لتحقيق شيئاً من طموحه، فقد قتل والي مصر الحقيقي "بايكباك التركي" فأسندت الخلافة العباسية ولاية مصر إلى تركي آخر وهو"بارجوخ" الذي كان بينه وبين ابن طولون مودة ومصاهرة فأقره على مصر كلها، أما أحمد المدبر فقد شعر بحرج مركزه في مصر بعد ولاية ابن طولون عليها، وبخاصة أنه كان مكروهاً من أهالي مصر لزيادته في الضرائب واستعماله القسوة والقوة في جبايتها، فطلب من الخلافة نقلة إلى جهة أخرى فتم له ما أراد وولي خراج دمشق والأردن وفلسطين وأسند خراج مصر إلى شخص آخر اسمه أحمد بن خالد، وفي عام 259 هـ مات "بارجوخ" والي مصر الحقيقي فعينت الخلافة " احمد بن طولون" والياً على مصر وارتبطت علاقته بدار الخلافة مباشرة.

وفي سنة 263هـ كتب الخليفة العباسي "المعتمد" إلى أحمد بن طولون يستحثه على إرسال الخراج، فرد عليه: " لست أطيق والخراج في يد غيري " فقلده الخليفة خراج مصر وولاه الثغور الشامية كذلك، وبذلك أصبحت مصر كلها في يد ابن طولون ،إدارتها وماليتها وحربها وقضائها"

- **أهم أعمال أحمد بن طولون:**

قام أبن طولون بعدة أعمال منها:

*** بناء جيش للدولة:**

أعد أحمد بن طولون جيشاً قوياً اعتمد عليه في تنفيذ مشاريعه والدفاع عن استقلال البلاد، فاستكثر من شراء العبيد حتى بلغت عدتهم أربعة وعشرين ألف أسود، وسبعة آلاف مرتزق، وبهذا أصبحت له قوة نظامية كبيرة العدد تخضع له مباشرة مكنته من القيام بدور الجهاد في الثغور الشامية التي أسندت إليه.

*** بناء مدينة القطائع:**

شرع طولون في بناء مدينه له على طراز المدن التي تنشئها الدول الجديدة كعواصم لها، فأخذ في إنشاء مدينة " القطائع" على جبل يشكر بين الفسطاط وتلال جبل المقطم وذلك عام 256 هـ /870م، وبنى فيها قصراً ضخماً جعل أمامه ميداناً فسيحاً ليستعرض فيه جيوشه، ثم اختط حول القصر ثكنات جنوده وحاشيته، وجعل لكل فئة من جنوده قطعة خاصة بها، فالجنود السودان لهم قطعة وللجنود الترك قطعة، وللروم قطعة، ولذلك سميت مدينة القطائع، وشيد ابن طولون في الجهة الشرقية من القطائع قناطر للمياه لا تزال بعض عقودها قائمة.

وبنى ابن طولون بجوار قصره وعلى سفح جبل يشكر مسجده المعروف باسمه حتى اليوم وقد درست مدينه القطائع ولم يبق منها اليوم إلا جامع ابن طولون.

*** السيطرة على البريد:**

سيطر ابن طولون على البريد فأصبح خاضعاً له فضمن أن لا تتسرب أخباره إلى دار الخلافة إلا بالقدر الذي يريده.

إقرار الأمن في البلاد: عمل ابن طولون على إقرار الأمن في البلاد: فتصدى للفتن الداخلية وقمعها بقوة حتى استقامت له الجبهة الداخلية.

*** الإصلاحات الاقتصادية:**

لما كانت المشروعات الاستقلالية تتطلب أموالا طائلة فقد قام بإصلاحات اقتصادية كثيرة: فاعتنى بديوان الخراج فملأه بالموظفين الموالين له وفرض عليهم رقابة صارمة، واتخذ موظفين من أهل مصر، فزاد خراج مصر في عهدة وبلغ أكثر من ثلاثة ملايين دينار، كما عمد إلى زيادة الدخل في ميادين الإنتاج كلها فأقام الجسور وحفر الترع، ونشر العدل وقضى على الفتن فأقبل الفلاحون على العمل في الزراعة آمنين حتى أنعشت الزراعة وكثرت المحاصيل وعم الرخاء بلاد الريف كلها، كما أن جو الآمن ساعد على ازدهار التجارة، واستتبع نم الزراعة والتجارة نشاط الحركة الصناعية في البلاد، وبفضل هذه الإصلاحات تجمع ت لدى ابن طولون أموالا ضخمة أعانته في خطواته الاستقلالية.

*** بناء المارستان:**

المارستان كلمة فارسية بمعنى المستشفى، وقد بناه ابن طولون لمعالجة المرضى على اختلاف حالاتهم، وألحق به صيدلية لصرف الأدوية، فكان المريض إذا دخل المستشفى نزع

ثيابه وقُدمت لها ثياباً أخرى ويودع المريض ما معه من مال لدى أمين المارستان، ثم يوضع المريض في مكان تتوفر فيه وسائل الراحة ويظل المريض تحت العلاج مجاناً حتى يتم شفاؤه، فإذا قدمت له دجاجة ورغيف فأكلهما فهذا معناه أنه شفي فعند ذلك يؤذن له بمغادرة المستشفى،وكان ابن طولون يطوف بأنحاء المستشفى أسبوعيا يتفقد الأدوية وأعمال الأطباء ويشرف على المرضى.

*** توطيد العلاقة مع الدولة الأموية في الأندلس:**

أخذ ابن طولون في التقرب إلى الأمويين في الأندلس ووطد معهم لعل ذلك كان من باب الكيد للأمير الموفق وأتباعه العباسيين، وقد بنى ابن طولون ضريحا لمعاوية بن أبي سفيان في دمشق، ويذكر المؤرخون أن عدداً من علماء الأندلس رحلوا إلى مصر فرحب بهم أبن طولون وعين بعضهم في مراكز الدولة الهامة، وكان الغرباء من أهل المغرب والأندلس في مصر يسكنون في جامع أحمد بن طولون ويدرسون فيه وتجري عليهم الأرزاق في كل شهر.

واتسع ملك ابن طولون حتى امتد م العراق إلى برقة، ومن النوبة إلى آسيا الصغرى، وخشي بأسه إمبراطور الروم بالرغم من بعد المسافة بين بلديهما فأهدى إليه بعض المصاحف، وأطلق له سراح بعض الأسرى المسلمين.

أما المشكلة الكبرى التي واجهت أحمد بن طولون فقد كانت مع دار الخلافة في بغداد، فقد ذكرنا أنه قامت حركة انتعاش في دار الخلافة قام بها أبو أحمد الموفق للخليفة إلا الاسم، ولما كان الموفق يستعد للقضاء على ثورة الزنج التي هددت الخلافة تهديداً خطيراً، فكتب إلى أحمد بن طولون يطلب منه إرسال معونة مالية كبيرة له، وأرسل له ابن طولون مليوناً ومائتي ألف دينار لكن الموفق استقلها وأحس أنه يرسلها متبرعاً لا مأموراً، فكتب إليه كتاباً ينطوي على الجفاء والشر، فرد عليه ابن طولون بكتاب شديد اللهجة، فأخذ الموفق يوغر صدر الخليفة المعتمد على ابن طولون حتى أرغم الخليفة على عزلة عن ولاية الثغور الشامية.

واتخذ ابن طولون كل وسيلة للدفاع عن نفسه، وكان على درجة عالية من الذكاء فاعتبر أن الخلافة واقعة تحت نفوذ الموفق وبذلك حصر العداء بينه وبين الموفق حتى لا يثير الخلافة عليه، ونصب نسه مدافعا عن الخليفة المظلوم فكتب إلى الخليفة المعتمد يحرضه بترك العراق والخروج إليه في مصر ويقول أن لديه القوة الكافية لحماية الخليفة وتحريره م سيطرة أخيه الموفق، استجاب الخليفة لإغراء ابن طولون فخرج من بغداد متظاهراً بالصيد حتى وصل إلى الرقة وكان في استقباله بعض رجال ابن طولون لكن الموفق اكتشف المؤامرة فأعاد الخليفة إلى سامراء، ثم أن ابن طولون عقد مؤتمرا صحفيا في دمشق جمع له القضاة من مصر والشام وأصدر قرارا بخلع الموفق عن ولاية العهد استناداً إلى أن الموفق نقض البيعة بعدوانه على الخليفة، وتجاوز السلطات المخولة إليه وبذلك استحق العزل عن ولاية العهد، وأتبع ذلك بأن أمر بلعن الموفق على المنابر وإسقاط اسمه من الدعوة ومحو اسمه من الطراز، وبذلك يكون احمد بن طولون قد أعطى نفسه حق خلع ولي العهد، وهو تصرف جريء فولاية العهد من اختصاص الخليفة، ولتبرير ذلك اتخذ ابن طولون لنفسه لقبا جديدا ورد صيغه كتاب الخلع وهو"

احمد بن طولون مولى أمير المؤمنين"، ثم تصدى لقوات الموفق ولعماله الذي عينهم في بلاد الشام منتهزاً انشغال الموفق بحرب الزنج واستطاع أن يقر سلطانه على الشام وعلى الثغور بقوة السلاح، بل إن قواته امتدت إلى الحجاز ونازلت قوات الموفق في مكة المكرمة.

رد الموفق على ابن طولون بأن اعتبره خارجاً على الخلافة وأصدر أمراً من الخليفة بلعن ابن طولون على المنابر في كل ولايات الدولة واعتباره من المفسدين، وكان لهذا الفعل رد فعل شديد في نفوس الناس، فقد شغب الأمراء في الولايات والمدن: في الشام والثغور على ابن طولون، ولم يستطع أن يكبح جماحهم بسبب ضعف نفوذه الأدبي بتأثير الدعاية الواسعة التي نشرها الموفق ضده، وكان لهذا أثر في موقفة العسكري فقد هُزمت قواته في مكة ولُعن في المسجد الحرام، كما حلت به الهزيمة في "طرسوس" بالشام، ومات أكثر جنده من البرد وغرقت أمتعتهم في مياه "نهر البردان" الذي أرسله عليهم حاكم طرسوس، وسار ابن طولون بعد ذلك إلى مدينة "المصيصة" وأقام بها ثلاثة أيام، وهنا عرضت له علة أودت بحياته، فدفن بقرية "اليحموم" بسفح جبل المقطم بعد أن حكم حوالي ستة عشر سنة، وعاش حوالي خمسين سنة.

- **أبو الجيش خمارويه:**

لما مات احمد بن طولون بايع الجند لابنه " خمارويه" الذي كان عمره عشرين عاما ولم يستطع الخليفة العباسي إلا الموافقة على هذا التعيين، وجد خمارويه نفسه أمام عدة مشاكل: فقد كان عليه أن يدافع عن الدولة التي أقامها أبوه في مصر وأن يحتفظ بالشام، كما كان عليه أن يستأنف المواجهة التي كانت قائمة بين الطولونيين ودار الخلافة، وكان الموفق في هذه الفترة قد استراح من حرب الزنج وتفرغ لشئون مصر، لكن خمارويه استطاع أن يحبط كل مساعيه وأن يقر السلام على الحدود الشرقية لمصر وقد امتد نفوذه من العراق إلى برقة، وأصبح الطولونيون قوة يحسب لها حساب كبير، فأحس الموفق أنه من الأفضل له مسالمتها بعد أن رآها على درجة من القوة، كما رأى خمارويه أن من الأفضل له مسالمتها فبدأ بطلب الصلح، واستجابت الخلافة لهذا الطلب فبعث الخليفة وأخوه الموفق إليه كتاباً للصلح كتبوه بأيديهم إعظاماً وتكريماً له، وفي هذا الكتاب أقرت الخلافة خمارويه على حكم البلاد التي تحت إمرته مدة ثلاثين سنة فيه وفي أولاه، وبذلك استوفت الإمارة الطولونية وأصبحت مصر دولة يعترف بها الجميع.

ومن أهم أعمال خمارويه أنه اهتم بمدينة القطائع وصرف عليها أموالاً طائلة، وقد وصف لنا المؤرخ المقريزي هذه المدينة الجميلة في عصر خمارويه فقال: إن خمارويه حول الميدان الذي كان أمام القصر لعرض الجند إلى بستان جميل تأنق في تنسيقه فغرس فيه الرياحين والزهور على شكل نقوش وكتابات، وجعل جزءاً من البستان حديقة للحيوانات والطيور المختلفة، وخصص لها ضياعاً كاملة لزراعة غذائها، ويقال أنه كان لديه سبع أليف يدعى "زريق" لزرقة عينيه وكان يلازم خمارويه ويحرسه أثناء نومه.

وفي عهد خمارويه تدعمت العلاقة بينه وبين دار الخلافة، فقد استطاع أن يكسب رضا الخليفة " المعتضد" بهداياه المتواصلة حتى انتهت العلاقة بينهما إلى المصاهرة إذ تزوج الخليفة المعتضد من قطر الندى ابنة خمارويه، على أن خمارويه لم يلبث أن توفي بدمشق سنة 282هـ..

ولي مصر بعد موت خمارويه ثلاثة من آل طولون لم يزد حكمهم على عشر سنوات وهم: أبو العساكر جيش بن خمارويه، وهارون بن خمارويه، وشيبان بن أحمد بن طولون، وخلال هذه الفترة انتشرت الفوضى في البلاد، وكثر النزاع على العرش فتدهورت حال البلاد وأخذت تسير من ضعف إلى ضعف، وأصبح أمراء بني طولون ألعوبة في يد الجند وتعرضوا للمهانة والقتل ، وفي سنة 290هـ ظهر القرامطة في الشام فأنفذت الدولة الطولونية جيشاً لقتالهم لكنه هُزم، وأدى هذا الضعف إلى أن تجددت الدولة العباسية رغبتها في إعادة مصر إلى سلطانها المباشر، فأرسل الخليفة " المكتفي " جيشاً إلى مصر بقيادة " محمد بن سليمان الكاتب "لاسترجاعها، ولم تستطع القوات الطولونية الصمود أمام القوات العباسية فدخل الجيش العباسي " الفسطاط" سنة292هـ وأمر محمد بن سليمان بإحراق مدينة "القطائع" فأحرقت، وهكذا زالت الدولة الطولونية بعد أن حكمت البلاد ثمان وثلاثين سنة.

- **الدولة الإخشيدية (323-358 هـ/935-969 م):**

ذكرنا أن الخلافة العباسية نجحت في إزالة الدولة الطولونية وأصبحت مصر تحكم من حاضرة الخلافة مباشرة، ولكن الخلافة العباسية انتكست مرة أخرى في عهد الخليفة المقتدر "295 هـ / 320 هـ " إذ عادت سلطة الأتراك على دار الخلافة فعادوا يستبدون بالخلفاء، وأهملوا شئون الدولة وأصبحت مصر مركزاً للمنافسة بين الولاة وعمال الخراج ن وقد صاحب هذا الوضع قيام الدولة الفاطمية بالمغرب وقضاؤها على دولة الأغالبة في تونس، وبذلك تلاقت الحدود العباسية بالحدود الفاطمية، وقد ظهر الاتجاه الفاطمي نحو مصر في تلك الفترة فأخذوا يرسلون جيوشهم ودعاتهم إلى مصر، ولاحقوها بالحملات المتكررة، ولم يكن هناك بد من وجود حاكم قوي في مصر يستقل بشئونها ويقر الأمن فيها، فأقامت الخلافة العباسية دولة حاجزة في مصر لتحميها وترد عنها هذا الزحف الشيعي الجديد، فولى الخليفة العباسي " الراضي" محمد بن طغج على مصر سنة 323هـ، فمن هو محمد بن طغج ؟ ما هي الدولة الإخشيدية ؟

- **محمد بن طغج الإخشيد:**

كان محمد بن طغج بن جف تركي الأصل من أولاد ملوك فرغانة الذين كان يلقب الواحد منهم بالإخشيد، قدم جف جد الإخشيد إلى دار الخلافة العباسية في عهد الخليفة المعتصم فأكرمه وأقام معه في بغداد وظلت أسرة جف مقيمة بدار الخلافة تعمل ضمن الأتراك الذين كانوا يهملون في العراق، وفي بغداد ولد " محمد بن طغج" عام 268هـ، واتصل محمد بن طغج بخدمة " ابن بسطام" عامل بلاد، ولما ولي ابن بسطام مصر صحبه محمد بن طغج إليها وبقي معه عامل بلاد الشام، ولما ولي ابن بسطام مصر صحبه محمد بن طغج إليها وبقي معه إلى أن

توفي عام 298هـ، فاتصل بخدمة ابنه أبي القاسم علي، ثم حارب قيادة "تكين " والي مصر وتصدى للحملة التي وجهها الفاطميون إلى مصر بقيادة " حباسة بن يوسف الكتامي " سنة302هـ وفي هذه المعركة أبلى ابن طغج بلاءً حسنا فوثقت الصلة بينه وبين تكين فكان يتنقل معه بين مصر والشام، فولاة تكين "عمّان وجبال الشراة" ثم ولاه " الإسكندرية" وهكذا استطاع محمد بن طغج أن يكسب عطف الأتراك.

وأتيحت الفرصة لابن طغج أن يكسب عطف الخلافة العباسية فقد حدث أن تصدى لجماعة من الأعراب " من قبائل لخم وجذام " أغاروا على قافلة للحجاج المارين ببلاد الشام وكان فيها قوم من أعيان العراق ومعهم جارية لأم الخليفة العباسي المقتدر فهزمهم ابن طغج وخلص القافلة منهم، فحمد أهل العراق له ذلك ورضي عنه الخليفة، حتى أشتهر أمرة في دار الخلافة ولما كانت الخلافة بحاجة رجل قوي يحكم مصر ليقر الأمن في مصر وليجعل منها قاعدة لصد هجمات الفاطميين فقد ولي الخليفة العباسي " الراضي" مصر لمحمد بن طغج سنة 323هـ ثم أمر الخليفة بإضافة لقب "الإخشيد" إلى اسم محمد بن طغج وهو اللقب الذي كان يطلق على ملوك فرغانة كما قلنا، ودُعي له بهذا اللقب على منابر مصر والشام في شهر327هـ.

وكان على الإخشيد أن يؤمن تلك المكانة التي وصل إليها، وحتى يعزز مكانته الداخلية والخارجية أنشأ جيشاً قوياً، وأخذ يتودد للمصريين فكسب ود أهل البلاد ثم حظي بولاء أهل الذمة الذي كانوا قوة لا يستهان بها بمصر في تلك الأيام، ونجح الإخشيد في إعادة الأمن والسكينة إلى بلادة، ووطد مركزه في مصر والشام وصد غزوات الفاطميين المتلاحقة على مصر وانتهى الأمر إلى توقيع اتفاق مصالحه بينه وبين الفاطميين.

أما علاقة الإخشيد مع الخلافة العباسية فق ظلت قائمة على الوفاق والمصالحة وحسن الجوار حتى عام 328هـ، فقد وقعت الوحشة وسوء التفاهم بين "محمد بن رائق" أمير الأمراء في بغداد والإخشيد، إذ أن ابن رائق اتسع نفوذه فتولى إمرة الجيش في بغداد وخراج جميع البلاد التي كانت في حوزة العباسيين وخطب له على المنابر في الشرق والغرب , ولم يزل ابن رائق بالخليفة العباسي حتى ولاه مصر فسار ابن رائق بجيشه إلى مصر حتى يتسلمها من الإخشيد وقطع الخطبة للخليفة العباسي وخطب للخليفة الفاطمي، وتقدمت قوات ابن رائق إلى مصر واشتبكت مع قوات الإخشيد عند العريش لكن ابن هُزم وتراجع منهزماً إلى الرملة، ثم جرى صلح بين الطرفين حصل بموجبه ابن رائق على الأراضي الشامية شمالي الرملة، لكن ابن رائق توفي بعد سنتين من هذا الصلح فعادت كل بلاد الشام إلى حوزة الإخشيد من غير حرب، ودخلت مكة المكرمة والمدينة المنورة تحت سيادته، وأصبح الإخشيد من القوة بحيث أمكنة أن يأمر عماله وقواده بالاعتراف بولاية ابنه "انجور" من بعده، وحصل على موافقة الخليفة على هذه البيعة وأصبح يدعى للخليفة وللإخشيد وابنه على منابر مصر والشام.

ولم يكد الأمر يستتب للإخشيد حتى خرج عليه العلويين في مصر فاضطر للتصدي لثوراتهم المتكررة، ولم يكد ينتهي منها حتى دخل في صراع مع الحمدانيين الذين استولى على مدينة "قنسرين" في بلاد الشام سنة 332هـ ساءت العلاقة بين الإخشيديين وسيف الدولة

الحمداني، وعلى الرغم من انتصار الإخشيد على سيف الدولة إلا أنه صالحه على أن يترك للحمدانيين حلب وما يليها من بلاد الشام وأن يدفع لهم جزية سنوية مقابل احتفاظه بدمشق، وإذا كان الإخشيد تصدى للحملات الفاطمية على مصر وردها، فإنه كان مرهوب الجانب عند البيزنطيين حتى إن الإمبراطور البيزنطي "رومانوس" كاتبه دون الخليفة ومدحه وتودد إليه، وقد رد عليه الإخشيد مؤكدا ولاءه للخليفة العباسي وأجابه باعتداد أنه يقبل ما عرضه من تبادل للأسرى، والخلاصة أن ملك الإخشيد اتسع فشمل: مصر، واليمن، وأجناد الشام: حمص، ودمشق،والأردن،وفلسطين، فضلا عما تقلده من أمر مكة المكرمة والمدينة المنورة، وكانت سياسته لهذه البلاد ترمي إلى تأليف قلوب الرعية وجمعهم على الطاعة وإقرار الأمن والدعة في المعيشة.

ولما شعر الإخشيد بدنو أجله عهد إلى كافور " بالوصاية على ولدية: أبي القاسم أنجور وأبي الحين علي،ومات الإخشيد بدمشق في شهر ذي القعدة سنة 334هـ وهو في السادسة الستين من عمره ونقل إلى بيت المقدس ودفن هناك بعد أن استمرت ولايته على مصر أحدى عشرة سنة، وكان أنجور الذي خلف أباه على العرش آنذاك طفلا لم يتجاوز الرابعة عشر من عمره.

- **أبوالمسك كافور:**

كان كافور عبداً حبشيا أسود اللون، ضخم الجثة، مثقوب الشفة السفلى ذكياً طموحاً مخلصاً في عمله، كان قد اشتراه الإخشيد من أحد الزياتين. وجعله ضمن خدمه، ثم عكف كافور على الدراسة وتحصي العلوم المختلفة حتى بلغ في ذلك مرتبة كبير أهلته لكي يكون مربياً لولدي الإخشيد وأن يلقب بلقب أستاذ، وقد ظل كافور يعتز بهذا اللقب حتى بعد أن أصبح والياً على مصر، وإلى جانب هذه الثقافة العلمية امتاز كافور بتفانيه في خدمة سيده حتى صار موضع ثقته ومن أقرب المقربين إليه، فأسند إليه الإخشيد قيادة جيوشه في حروبه مع سيف الدولة الحمداني وغيرها من الحروب الأخرى ثم عهد إليه بالوصاية على أبنائه كما بينا.

قام كافور بتدبير أمر الأمير "أنجور"وبقيت علاقته مع الوالي الجديد على ما كانت عليه من قبل وهي علاقة الأستاذ بالتلميذ، وأصبح كافور بذلك صاحب السلطان المطلق في إدارة الدولة الإخشيدية ولي للأمير أنجور إلا الاسم فقط واجه كافور في بدية حكمه بعض المشاكل الداخلية والخارجية ، فنجح في القضاء على ثورة قام بها أهل مصر، ثم وردت الأنباء عن اضطراب الأمور في الشام واستيلاء سيف الدولة الحمداني صاحب حلب على منطقة دمشق وبأنه عزم على غزو مصر، فحاربه كافور وانتصر عليه انتصاراً حاسماً ودخل جيشه مدينة حلب، ثم عقدت بين الطرفين معاهدة صلح.

ثم إن كافور حصل على موافقة من الخليفة العباسي بتولية انجور على مصر والشام والمدينتين المقدستين مكة والمدينة، ثم ضم كافور إلى حكم مصر فيما بعد كل البلاد السورية حتى مدينتي حلب وطرطوس فعظم شأنه وزادت شهرته واستطاع أن يقبض زمام الحكم من غير أن تكون له سلطة شرعية، وكان كبار القوم يطلقون عليه لقب الأستاذ، وذُكر اسمه في

الخطبة ودُعي له على المنابر في مصر والبلاد التابعة لها، وأتيح له بما أغدقه من العطايا والهبات أن يكتسب ولاء رؤساء الجند وكبار الموظفين.

على أن انجور لما كبر شعر بحرمانه من سلطته ظهرت الوحشة بينه وبين كافور، ومع ذلك ظل كافور على ما هو عليه يصرف للأمير راتباً سنويا قدرة أربعمائة ألف دينار، ثم توفي أنجور بعلة أصابته سنة 349هـ، فتولى مكانه أخوه أبو الحسن علي الذي كان عمره ثلاث وعشرين سنة، إلا أن كافور ظل يمارس سلطته كما كان سابقاً: فرتب للأمير الجديد راتباً سنويا كأخيه، ومنع الأمير من الاجتماع بالناس وحرمه من كل عمل، فأصبح أبو الحسن أسيرا في قصره لا عمل له إلا الصلاة أو اللهو، وظل الأمير أبو الحسن كذلك إلى أن مات 355هـ بالعلة التي مات فيها أخوه من قبل، وحاول بعض رجال البلاط تولية ابنه الصغير" أحمد بن أبي الحين بن علي"، لكن كافور رفض تعيينه بحجة انه غير صالح للحكم لصغر سنة وكتب للخليفة بذلك، وبعد حوالي شهر جاء كتاب الخليفة من بغداد بتولية كافور ولاية مصر وما يليها من بلاد، ولم يتغير لقب كافور بالأستاذ ودعي له بعد الخليفة على المنابر.

حكم كافور الديار المصرية كأمير مستقل سنتين (355-357هـ) ويصف المؤرخون عهده بأنه كان عهداً أسود، فقد تولت فيه المصائب على مصر: فتعرض البلاد لغارات القرامطة الذين نهبوها، واستولوا على قافلة مصرية كبيرة تتألف من عشرين ألف جمل كان في طريقها إلى مكة المكرمة لأداء فريضة الحج، ووقعت بمصر زلازل مروعة، وشبت نيران هائلة بالفسطاط دمرت 1700 منزل، وأغار ملك النوبة على مصر فجأة فخرب البلاد الواقعة بين الشلال الأول وأخميم، وأحرق بعض المدن، ونهب الأموال، وقتل الناس، وكان أشد هذه الأهوال انخفاض منسوب مياه النيل، وفي عهده غزا المعز لدين الله الفاطمي رابع الخلفاء الفاطميين مصر وسار بجيشه إلى حدود البلاد الغربية ووصل إلى الواحات، لكن كافور تصدى له وأوقف زحفه، على أن الدعاة الفاطميين لم يكفوا عن نشر مذهبه في مصر حتى انتشر بين الناس وقبلة كثير منهم حتى أن كافور نفسه تلقى بالقبول الدعاة الفاطميين ووعد كثيراً من رجال بلاطه وكبار موظفي دولته بتقديم الولاء للخليفة الفاطمي.

أما عن صفات كافور فقد روى أبو المحاسن عن الذهبي: "كان كافور يدني الشعراء ويجيزهم، وكانت تقرأ عنده كل ليلة السير وأخبار الدولة الأموية العباسية، وله ندماء، وكان عظيم الحرمة وله حجاب، وله جوار مغنيات، وله من الغلمان الروم والسود ما يجوز الوصف، وزاد ملكه على مولاه الإخشيد وكان كثير الخلع والهبات، خبيرا بالسياسة، فطنا ذكياً، جيد العقل داهية، كان يهادي المعز صاحب المغرب ويظهر ميله إليه، وكذا يذعن بالطاعة لبني العباس ويداري ويخادع هؤلاء وهؤلاء وتم له الأمر ".

وقد نبغ في مصر في عهد كافور كثير من الفقهاء والأدباء والمؤرخين، ومن أشهرهم القاضي أبو بكر بن الحداد، وتلميذه محمد بن موسى المعروف بسيبويه المصري، وأبو عمر الكندي، والحسن بن زولاق.

توفي كافور بمصر سنة 357هـ بعد أن عاش بضعاً وستين سنة، وحمل تابوته إلى القدس ودفن بها، وبعد وفاة كافور اختار رجال البلاط " أبا الفوراس أحمد" حفيد الإخشيد والياً على مصر وكان طفلاً لم يبلغ الحادية عشر من عمره، فعين رجال البلاط " الحسن بن عبيد الله بن طغج " والي الشام وصياً عليه،غير أنه لم يلبث أن أستبد بالأمر وأساء معاملة الأهالي، فسخط عليه المصريون فاضطر للعودة إلى الشام فانتهز الفرصة الخليفة الفاطمي المعز لدين الله فرصة هذا الاضطراب الذي وقع في مصر، كما انتهز فرصة ضعف الدفاع عنها لاشتغالها بصد غارات البيزنطيين، فأرسل جيشاً لغزو مصر بقيادة جوهر الصقلي فنجح في احتلالها سنة 358هـ وضمها للدولة الفاطمية.

- **الدولة الفاطمية (296-567 هـ/909-1171 م):**

لعل ما يهمنا من دراسة الدولة الفاطمية أن نقف على علاقة الدولة الفاطمية مع دولة الخلافة العباسية،ثم محاولة الفاطميين التوسع نحو الشرق باحتلالهم مصر وبلاد الشام وزحفهم نحو العراق.

- **نشأة الحزب الشيعي:**

ترجع نشأة الحزب الشيعي إلى وقت مبكر في تاريخ الإسلام فقد بدأت بواكيره منذ وفاة النبي محمد صلى الله عليه وسلم سنة 11هـ،إذ رأى بعض الصحابة الكرام أن أولى الناس بالخلافة هوأهل بيت النبي أي بنو هاشم وأولى هؤلاء هو علي بن أبي طالب ابن عم النبي صلى الله عليه وسلم، وهكذا نستطيع أن نقول أن الشيعة أول حزب سياسي ديني في الإسلام، غير أن اجتماع السقيفة المشهور انتهى باختيار أبي بكر الصديق رصي الله عنه للخلافة ثم آلت الخلافة إلى عمر بن الخطاب ثم علي بن أبي طالب رضي الله عنهما.

وكان بين بني أمية وبني هاشم تنافس قديم على الرياسة منذ الجاهلية، فلما ولي عثمان بن عفان اعتبر بنو أمية الدولة دولتهم لأن عثمان منهم، ومال هو إليهم ميلاً ألب عليه طائفة من المسلمين وانتهى الأمر بقتله، وقد اتهم الأمويين علياً بالمشاركة في قتله، وهكذا نشب النزاع بين الحزب الأموي والحزب العلوي الذي عرف أتباعه باسم الشيعة لأنهم شايعوا (نصروا) آل البيت،ثم انتهى هذا الصراع إلى حرب مسلحة (معركة صفين) التي تسببت في ولادة حزب ثالث وهو حزب الخوارج، وانتهى أمر هذا النزاع إلى انتقال الخلافة إلى البيت الأموي واستقرارها فيه ملكاً وراثياً.

لكن الخوارج والشيعة ظلوا معارضين للحكم الأموي، فقام الشيعة بعدة حركات ثورية ضد الأمويين من أشهرها: خروج الحسين بن علي على يزيد بن معاوية التي انتهت بمذبحة كربلاء 61هـ، وظلت ثورات الأحزاب المعارضة من شيعة وخوارج تتزايد على بني أمية حتى سقوط دولتهم سنة 132هـ /749م وقيام الدولة العباسية.

وظن الشيعة أن الدولة أصبحت دولتهم بعد زوال الحكم الأموي، ولكن خاب ظنهم حين قبض أبناء عمومتهم من بني العباس على ناصية الأمور وجعلوا الخلافة وراثية بينهم، وعاد الشيعة إلى نشاطهم المعارض للدولة فهم يرون أنهم أحق بالخلافة، لأنهم أولا رسول الله صلى

الله عليه وسلم من ابنته فاطمة الزهراء، بينما كان العباسيون يرون بأنهم أحق بالخلافة لأن أباهم العباس هو عم النبي محمد صلى الله عليه وسلم، والعم في الميراث مقدم على ابن البنت فهم على هذا الأساس أحق بالخلافة من العلويين وفق قانون الوراثة في الشريعة الإسلامية، وتمسك العلويون بحقهم وقاموا بعدة ثورات عنيفة هددت سلامة الدولة العباسية في بعض الأحيان،غير أن خلفاء بني العباس قضوا على تلك الثورات بمنتهى الشدة والعنف، لكن العلويين استمروا في ثوراتهم وانتشروا في الآفاق يبحثون عن مكان ملائم لقيام دولتهم العلوية الشيعية ولكن بمنتهى السرية والحذر.

- **قيام الدولة الفاطمية :**

اختلف المؤرخون في نسب الفاطميين،فبعضهم يقول أنهم ينتسبون إلى إسماعيل بن جعفر الصادق ومن ثم الإسماعيلية، وقيل أنهم سموا أنفسهم فاطميون ليوهموا الناس أنهم نسل الإمام علي من زوجته فاطمة الزهراء بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم،على أن بعض المؤرخين من يُنِكر ذلك كله ويقول: إنهم يرجعون في نسبهم إلى رجل فارسي هو" عبدالله بم ميمون القداح الأهوازي" الثنوي المذهب لأنه يقول بوجود إلهين إله النور وإله الظلمة.

بدأت الدعوة الفاطمية عندما أرسل الإمام " محمد الحبيب" سنة 270هـ أحد أشياعه وهو" ابن حوشب الكوفي " من بلاد الشام إلى بلاد اليمن لنشر الدعوة الفاطمية فيها، وسرعان ما اعتقد أهالي اليمن في المهدي من آل علي وانتظروا ظهوره، ومن اليمن بعث ابن حوشب كان على بلاد اليمن فعهد إلى الداعي " أبي عبد الله الشيعي" لنشر الدعوة في المغرب، فأرسل أبو عبد الله الشيعي إلى " سلمية " في الشام يدعوا الإمام " سعيد بن محمد الحبيب" الملقب بعبيد الله المهدي الحضور إلى إفريقيا "تونس"، فرحب عبيد الله المهدي بهذه الدعوة، ولكن الخليفة العباسي المقتدر 295-320 هـ علم بالأمر فأمر بالقبض على المهدي وحبسه، لكن المهدي أستطاع الإفلات من محبسه بعد فترة، وواصل سيره نحو الغرب حتى وصل مدينة القيروان وهناك سلم عليه أهلها بالخلافة وبايعوه على السمع والطاعة، وذُكر اسمه في الخطبة وتلقب " المهدي أمير المؤمنين".

أقام عبد الله المهدي بمدينة القيروان التي اتخذها حاضرة لدولته فترة من الزمن، ثم بنى مدينة " المهدية" على بعد مرحلتين جنوبي القيروان واتخذها عاصمة لدولته، وسرعان ما تطلع المهدي لفتح مصر، فأرسل في عام 301هـ جيشا من المغاربة استولى على برقة والإسكندرية لكن الخليفة العباسي بعث مؤنساً الخادم على رأس جيش كبير أوقع الهزيمة بالجيش الفاطمي وأرغمه على العودة إلى المغرب، لكن الخليفة المهدي أرسل حملة ثانية إلى مصر بعد ثمان سنوات، ورغم نجاحها في احتلال الإسكندرية إلا أن القائد العباسي مؤنسا الخادم نجح في هزيمتها وأحرق مراكبها وأرغمها على العودة إلى المغرب.

وتوفي الخليفة المهدي 322هـ/933م وتولى بعدة ابنه "القائم بأمر الله"، ومن أهم أعماله أنه أرسل حملة عسكرية لاحتلا مصر بقيادة خادمة " زيدان " وبالغ في تجهيز هذه الحملة والنفقة عليها، ونجحت الحملة في احتلال الإسكندرية، لكن واليها " محمد بن الإخشيد" واجههم بجيش

كبير استطاع إيقاع الهزيمة بهم فارتدوا إلى المغرب صاغرين، وكان كغيرة من خلفاء الفاطميين ينقم أهل السنة حتى أمر بلعن الصحابة، وقد أثار غضب المغاربة وخاصة الخوارج الذين ثاروا على الفاطميين، وكانت أشد الثورات خطرا وأشدها بلاءً تلك الثورة التي أشعل نارها "أبو يزيد مخلد بن كيداد " والتي استمرت طيلة عهد القائم ولم تخمد إلا في عهد ابنه المنصور.

توفي القائم في شهر رمضان 334هـ وخلفه ابنه " المنصور "، واشتهر هذا الخليفة الجديد بالشجاعة ورباطة الجأش، كما امتاز بأنه يستطيع أن يؤثر في نفوس سامعيه بفصاحته وبلاغته وقدرته على ارتجال الخطب، وفي عهد هذا الخليفة انقطعت العلاقات بين مصر والمغرب، لأنه قصر همه وأنفق كل موارد دولته للقضاء على ثورة:أبي يزيد" حتى تم له ذلك وقبض على أبي يزيد وساقه جريحاً إلى عاصمته المهدية سنة 336هـ، وقضى المنصور البقية الباقية من حياته في إعادة تنظيم بلاده: فأنشأ أسطولاً كبيراً، وأسس مدينة المنصورية سنة 337هـ على مقربة من القيروان واتخذها حاضرة لدولته وبقيت كذلك حتى فتح مصر، ومات المنصور في شوال 341هـ ودفن بالمهدية.

- **فتح مصر:**

بعد وفاء المنصور تولى الخلافة " المعز لدين الله الفاطمي" وكان مثقفاً يجيد عدة لغات مثل: الإيطالية، والصقلية، والسودانية، وكان ذا ولع بالعلوم ودراية بالأدب، فضلاً عما عرف عنه من حُسن التدبير وإحكام الأمور.

نجح الخليفة المعز لدين الله في بسط نفوذه على كافة بلاد المغرب وخضعت له قبائل البربر كلها،ثم تطلع لفتح مصر طمعاً في ثروتها من جهة، ولأهمية موقعها الاستراتيجي والجغرافي من جهة ثالثة، فضلاً عن قربها من بلاد الشام وفلسطين والحجاز التي كانت تابعة لمصر منذ عهد الطولونيين، ثم إن نجاح الفاطميين في فتح مصر يسهل عليهم الاستيلاء على المراكز الإسلامية القديمة وهي المدينة المنورة، ودمشق وبغداد، من العوامل التي شجعت الخليفة المعز لدين الله لفتح مصر استتاب الأمن في كافة أرجاء المغرب بعد القضاء على ثورة "أبي يزيد"، ثم انتشار الفوضى والاضطرابات في مصر بعد مت الأستاذ كافور الإخشيدي سنة 357هـ، وضعف الخلافة العباسية واشتغالها بدفع البيزنطيين بعيدا عن بلادها، فضلاً عن تأييد الشيعة من مصر للدعوة الفاطمية حتى أنهم كتبوا إلى المعز لدين الله يطلبون منه إرسال جيوشه لفتح مصر، وفي شهر ربيع الأول سنة 358هـ سار القائد الفاطمي جوهر الصقلي نحو مصر فاستولى على برقة، ثم فتحت له أبواب الإسكندرية دون مقاومة ثم فاوضه أهل الفسطاط وسلموا له البلاد، وهكذا دانت مصر بالولاء للفاطميين، ولما علم الخليفة الفاطمي المعز لدين الله بفتح مصر سر سروراً عظيماً، وهكذا زال سلطنا الإخشيديين والمصريين والعباسيين عن مصر وأصبحت هذه البلاد ولاية فاطمية، وتحقق حُلم الخليفة المعز لدين الله في تحويل حاضرة خلافتهم إلى مصر واتخاذها مركزاً لإمبراطوريتهم الشاسعة.

ثم أرسل جوهر الصقلي قائده " جعفر بن فلاح الكتامي" لفتح بلاد الشام فاستولى على طبريا والرملة ودمشق حتى دانت له بلاد الشام، ثم شرع جوهر الصقلي في بناء مدينة القاهرة وتأسيس الجامع الأزهر وإقامة الدعوة الفاطمية في فلسطين وسائر بلاد الشام والحجاز، وبعد أن تم لجوهر الصقلي بناء مدينة القاهرة استدعى الخليفة المعز لدين لله من عاصمته المنصورية فوصل الخليفة للقاهرة ودخلها في السابع من رمضان 362=973 ولما دخل المعز لدين الله القصر الذي بناه له جوه خر ساجداً لله تعالى وصلى ركعتين في إحدى ردهات وصلى خلفه من كان معه من الناس، واتخذ الخليفة المعز لدين الله وسائر الخلفاء الفاطميين مدينة القاهرة عاصمة لدولتهم وبقيت كذلك حتى نهاية عصرهم.

- **الدولة الفاطمية بعد المعز لدين الله:**

لم يعمر الخليفة المعز لدين الله طويلاً فقد توفي بعد ثلاث سنوات من دخوله القاهرة وتولى بعده ابنة " العزيز بالله نزار "، وفي أيامه اتسعت رقعة الدولة الفاطمية فامتدت من آسيا الصغرى شمالاً إلى بلاد النوبة جنوباً، ومن المحيط الأطلسي غرباً إلى جنوب الجزيرة العربية شرقاً، ثم هزمت قوات العزيز بالله قوات القرامطة والأتراك في الرملة، واستردت بلاد الشام حتى خطُب للخليفة بالموصل وأعمالها وفي اليمكن كذلك، ثم أرسل العزيز بالله جيشاً إلى مكة المكرمة فاحصرها وضيق عليها الخناق، ومنع عنها إمدادات التموين حتى غلت الأسعار ولقي أهلها شدة عظيمة، فدخل الجيش الفاطمي إلى مكة وأقام الخطبة فيها للخليفة الفاطمي العزيز بالله.

وتوفي العزيز بالله سنة 386هـ/ 996م فخلفه ابنه المنصور الذي لقب " الحاكم بأمر الله "وكان طفلاً لم يكمل الحادية عشر من عمره، وقد اشتهر هذا الخليفة بعدائه لأهل السنة: فقام باضطهادهم في مصر، وأمر بسب الصحابة على منابر المساجد وكتابه ذلك في جدرانها، وفي سنة 395هـ/ 1005م خرج على الحاكم بأمر الله الفاطمي الوليد بن هشام بن المغيرة والمعروف باسم " أبو ركوة" في إقليم برقة، وكان أبو ركوة أحد رجال البيت الأموي في الأندلس الذين يعتنقون المذهب السني، واستطاع أبو ركوة الاستيلاء على إقليم برقة ودعا للخليفة الأموي "هشام المؤيد" وأمر بلعن الحاكم بأمر الله وآبائه على منابر المساجد، واستطاع أبو ركوة أيضاً هزيمة عدة جيوش فاطمية أرسلها الحاكم بأمر الله وطارد الجيوش الفاطمية حتى أهرام الجيزة، ولكن وبعد سنتين استطاعت جيوش الحاكم هزيمة أبي ركوة في منطقة الفيوم وأسره، ثم أن الحاكم عرضه عرضاً مزرياً في شوارع القاهرة، إذ وضع وراءه على الدابة قرداً يصفعه على رأسه ثم قتلة وصلبه.

وفي عام 411هـ قتل الحاكم بأمر الله الفاطمي تولى بعده ابنه " الظاهر لإعزاز دين الله" وكان صبياً لم يتجاوز السادسة عشرة من عمره، فضعفت أمور الدولة في عهدة انتشرت الاضطرابات والفتن، وقامت الدولة المرداسية في حلب 414 هـ وأعلنت استقلالها عن الدولة الفاطمية.

وتوفي الخليفة الظاهر سنة 427هـ /1035م وخلفه ابنة "المستنصر بالله أبو تميم" الذي كان هو الآخر طفلاً صغيراً عمره سبع سنوات، ولكن عهده امتد ستين سنة وهو أطول فترة حكم عرفت في الإسلام، وغي أواخر عهد هذا الخليفة شهدت مصر أزمة اقتصادية وسياسية خطيرة عُرفت باسم الشدة المستنصرية، إذ انخفض منسوب مياه نر النيل، وأصاب البلاد القحط الشديد، وتبع ذلك غلاء الأسعار وانتشار المجاعات والأوبئة حتى أكل الناس القطط والكلاب، وقد ساعد على تفاقم الأزمة الاقتصادية ضعف الحكومة وعدم وجود وزراء أقوياء، فالدولة بدلاً من أن تعالج الأزمة أخذت تتشدد في جمع الضرائب من المواطنين وتساعد على إشعال الفتن بين طائف الجند المختلفة، ولما انتهت "الشدة المستنصرية" بعد سبع سنوات لم تستطع إعادة الأمن والاستقرار إلى البلاد بسبب كثرة الفتن والاضطرابات، فاضطر الخليفة المستنصر إلى الاستنجاد بوالي عكا أمير الجيوش "بدر الجمال" الأرمني الأصل فدخل بدر الجمالي مصر 466هـ وقبض على الأمور بقبضة من حديد فانتظمت البلاد، فقلده الخليفة الوزارة إلى جانب الجيش فصار بيده كل شي في الدولة.

وتوفي الخليفة المستنصر سنة 487 هـ وتوالى على حكم الدولة الفاطمية عدة خلفاء ضعفاء لم يكن لهن من الأمر شيء إنما كانت الأمور كلها بيد الوزراء كالأفضل بن بدر الجمال، وابنه الأكمل،ومحمد بن فاتك البطائحي، وثم أن هؤلاء الوزراء أخذوا يتنافسون على السلطة، ويستعين كل منهم بقوى خارجية لتنصره والخليفة الفاطمي لا يملك من الأمر شيئاً وأصبحت مصر في حالة من الفوضى تشبه الحالة الأولى التي استلم فيها الفاطميون السلطة من الإخشيديين، وفي عهد الخليفة " العاضد" آخر الخلفاء الفاطميين، استنجد وزيره "شاور" بقوة نور الدين محمود زنكي صاحب حلب ودمشق، واستنجد منافسه"ضرغام" بقوة "عموري" ملك مملكة المقدس الصليبية، لكن نور الدين زنكي أسرع في السير إلى مصر ومعه قائدة"صلاح الدين الأيوبي" ونجح نور الدين زنكي في القضاء على ضرغام وصد الهجمات الصليبية عن مصر، ولكنه توفي بعد ذلك فحكم مصر صلاح الدين الأيوبي باسم الخليفة الفاطمي"العاضد" الذي كان مريضاً ولم يلبث أن مات فخطب صلاح الدين الأيوبي للخليفة العباسي سنة 567هـ/1171، وهكذا قضي على الدولة الفاطمية وعادت مصر لحكم الخلافة العباسية دون إراقة دماء.

- **الدولة السلجوقية (447-**552 هـ/1055-1157 م):

ينسب السلاجقة إلى سلجوق بن دقاق موحد القبائل الغز أو الأغواز التركية التي كانت تستوطن سهوب تركستان بأواسط آسيا ،قبل نزوحهم إلى ما وراء نهر سيحون ،وقد اعتنقوا الاسلام على المذهب السني.

ظهر السلاجقة على مسرح أحداث الدولة العباسية في الوقت الذي كانت فيه هذه الأخيرة من الضعف والانحلال ،وسيطر على خلفائها بني بويه ،ويتقاسم معها السيطرة على المشرق الاسلامي الفاطميون الذين لم تكن أحوالهم أحسن من أحوال العباسيين بعدا سيطر الوزراء على دواليب الحكم فيها بعد وفاة الحاكم بأمر الله الفاطمي.

انتقل السلاجقة أواخر القرن 4هـ/10م إلى بخارى وسمرقند لمساعدة السمانيين في حماية الثغور الاسلامية .وبعد سقوط الدولة السامانية توجهوا غربا نحو اقليم خرسان تحت قيادة طغرل بك حفيد سلجوق بن دقاق ،وتمكنوا من السيطرة عليه وعلى المناطق المجاورة له ،حيث استولوا على نيسابور سنة 428هـ/1036م ،والري سنة 434هـ/1042م ،وأصبهان سنة 442هـ/1050م والتي اتخذها طغرل بك عاصمة لدولته الجديدة.

وأمام تمكن البويهيين من زمام الأمور في الدولة العباسية ومساندة الفاطميين لهم ،وتفاقم أمر الفتن المذهبية وخاصة في العراق استنجد الخليفة العباسي القائم بأمر الله بزعيم السلاجقة طغرل بك الذي لبى النداء ودخل بغداد سنة 447هـ/1055م واستقبل استقبال الأمراء الفاتحين ،وطلب الخليفة القائم بأمر الله بالدعاء له على المنابر ،فكان ذلك ايذانا بسقوط الدولة البويهية وقيام الدولة السلجوقية محلها في الوصاية على الخلافة العباسية.

لم تكد الأمور تستقر للسلاجقة في ظل الدولة العباسية حتى ثار عليهم أعوان البويهيين في ابلاد العباسي تحت قيادة المظفر أبا الحرث أرسلان المعروف بالبساسيري .

- **ثورة البساسيري:**

كان البساسيري يتمتع بمكانة رفيعة لدى الخليفة العباسي القائم بأمر الله مما جعل رجال الدولة ينقمون عليه ،وأخذوا يدبرون له الدسائس ،وعلى رأسهم الوزير أبو القاسم علي بن مسلمة الذي أخذ يوغر صدر الخليفة حتى نقم عليه ،فاضطر إلى الفرار من بغداد إلى مدينة الرحبة بالشمال ،أين طلب النجدة من الخليفة الفاطمي المستنصر بالله الذي استجاب لطلبه وأرسل إليه المال والسلاح والخيل.

وجد البساسيري الفرصة المواتية بعد خروج طغرل بك من بغداد لمحاربة أخيه من أمه ابراهيم بينال ،فهاجم بغداد واستولى عليها بمساعدة شيعة الكرخ أحد أحياء بغداد ،وكان ذلك سنة 450هـ/1058م ،ورفع فيها الألوية الفاطمية ،وفي البصرة وواسط ،بعدما عزل الخليفة القائم بأمر الله ،وشهر بالوزير أبو القاسم علي بن مسلمة وسخر منه أمام العامة .

بسبب الأزمات التي توالت على الدولة الفاطمية ،والظروف الفقاسية التي مرت بها البلاد المصرية خاصة الاقتصادية منها انقطع المستنصر بالله عن مساعدة البساسيري ،الذي تمكن طغرل بك من القضاء على ثورته بعد عودته إلى بغداد منتصرا في حربه على أخيه ابراهيم ،حيث أعاد الخليفة إلى عرشه ،ثم قاتل البساسيري إلى أن هزمه وقله.

توفي طغرل بك سنة 455هـ/1063م وقد بلغ من العمر سبعين سنة ،فخلفه ابن أخيه ألب أرسلان الذي تمكن من الاستيلاء على حلب وشمال الشام ،وحارب الروم البيزطيين وهزمهم شر هزيمة في معركة ملاذ كرد التي فتحت الطريق واسعا أمام السلاجقة للتوسع في أسيا الصغرى ،وبعد وفاة ألب أرسلان بطعنة من أحد حراس قلعة سمرقند والمدعو يوسف الخوارزمي سنة 465هـ/1073م تولى مكانه ابنه ملك شاه جلال الدين أبو الفتح الذي واصل حرب السلاجقة ضد النفوذ الفاطمي الشيعي ببلاد الشام ،كما واصل توسيع دولته التي بلغت أقصى اتساعها على عهده ،حيث امتدت من فلسطين جنوبا إلى أفغانستان شرقا إلى آسيا

الصغرى غربا ،وشهدت على عهده الدولة السلجوقية نهضة علمية وفكرية وأدبية كبيرة ،حيث غرف عهده تشييد المدارس النظامية نسبة لوزيره نظام الملك الطوسي المتوفى سنة 485هـ/1092م ،وبعده بشهر واحد توفى ملك شاه ،وتولى مكانه ابنه بركياروق الذي دخل في صراع مع اخوته وأعمامه ،ودخلت الدولة السلجوقية مرحلة الضعف حتى سقطت بوفاة آخر سلاطينها سنجار الذي لم يكن له عقب يرثه ،وكان ذلك سنة 552هـ1157م.

- **دولة الأتابكة:**

قال القلقشندي في تاريخه أن أتابك أصله "أطابك" ومعناه الوالد الأمير، وأول من لُقب بهذا اللقب الوزير "نظام الملك" حيث فوض إليه السلطان السلجوقي ملك شاة تدبير المملكة 465هـ، وأتابك أيضاً كلمة تركية معناها مربي الأمير لأن "أتا"معناها مربي و"بك" معناها الأمير.

وكان السلاجقة يعهدون بتربية أبنائهم إلى المقربين إليهم من الأتراك، وإذا عين السلطان السلجوقي أحد أبنائه على مدينة من المدن أو ولاية من الولايات أرسل معه تركياً ليكون مربياً ويعاونه في الحكم ويسدي إليه ما يراه من النصائح، وكان هذا الشرف لا يمنح إلا لكبار رجال الدولة وقادة الجيش، وسرعان ما أصبح هؤلاء الأتراك أصحاب النفوذ الفعلي في الولايات التي عُهد إليهم بالحكم فيها فأخذوا يعملون لحسابهم الخاص ويتخذون لأنفسهم الألقاب التي تروق لهم، وعندما كانت تقوم النزاعات بين أمراء البيت السلجوقي كان الأتابكة ينتهزون هذه الفرصة لفرض سيطرتهم على البلاد التي تحت حكمهم، وتوسيع حدود ممتلكاتهم وإعلان استقلالها.

وقد وصل بعض هؤلاء الأتابكة إلى درجة المُلك وأورثوه أولادهم من بعدهم، ومن ثم أطلق على هذه الأسرات أو الدول الحاكمة فيما بعد اسم "دول الأتابكة "، ومن دول الأتابكة كيفا وماردين، دمشق، دانشمند، الموصل، الجزيرة، سنجار، أربيل،د يار بكر، حلب، كرمان، أذربيجان، وفارس وغيرها، وإلى جانب الأتابكيات ظهرت دول أخرى ولاها بعض السلاجقة قوادهم فأورثوها أبنائهم وسميت "دول الشاهات" ومن أهمها شاهات خوارزم، وشاهات أرمينيا.

ونستطيع القول أن الدول الأتابكية كانت كثيرة العدد، وبيوتها شتى لا يجمعها نسب واحد، إلا أنه يجمعها صفة المملوكية والاتصال بالبيت السلجوقي والنظام الإقطاعي، ومن أشهر المماليك السلاجقة "الأتابك" الذين صاروا ملوكاً بنوأرتق حكام حصن كيفا 495هـ-629هـ، وأتابكة دمشق 497هـ-549هـ، ومن مشاهير الأتابكة في أوائل القرن الثاني عشر الميلادي الأمير عماد الدين زنكي مؤسس أتابكية الموصل والشام وديار ربيعة ومضر، ومن طريق عماد الدين زنكي وابنه نور الدين كان ظهور صلاح الدين الأيوبي مؤسس الدولة الأيوبية ومحرر القدس من الصليبين.

وقد تميز العصر الأخير من حكم السلاجقة بسيطرة الأتابكة على الدولة بحيث أصبحوا ذو نفوذ، كبير، على أنه بعد ممات السلطان سنجر ظهر هؤلاء الأتابكة بشكل واضح وبرزت شخصياتهم وأسماؤهم وأخذوا يقومون بالدور الرئيسي في الدولة، وصار سلاطين السلاجقة

أداوت في أيديهم يأتمرون بأمرهم وينفذون رغباتهم دون أن يكون لهم نفوذ أو شخصية واضحة.

وما زال الأتابكة يسيطرون على الدولة السلجوقية حتى كانت نهايتها، وقد جاءت النهاية على يد حكام خوارزم الذي أخذوا يتدخلون في المنازعات بين أمراء البيت السلجوقي ثم أخذوا يمدون ملكهم على بلاد السلاجقة، وكما وجدت الخلافة العباسية فرصتها للاستعانة بهم لإنهاء تسلط السلاجقة عليها، ففي عام 588هـ استعان احد أمراء السلاجقة واسمه " قتلوغ بن جهان" بعلاء الدين تكش حاكم خوارزم، ضد السلطان السلجوقي " طغرل الثالث " فأمده الأمير علاء الدين بجيش استولى على مدينة"الري" وعلى الرغم من أن السلطان طغرل تمكن من هزيمة هذا الجيش واستعادة الري، إلا أن "قتلوغ" عاود الاستنجاد بحاكم خوارزم عام590، وتوافق ذلك مع وصول رسالة من الخليفة العباسي "الناصر لدين الله" إلى حاكم خوارزم يشكوا إليه من ظلم السلطان السلجوقي "طغرل الثالث"، ويدعوه إلى مقاتلته والاستيلاء على بلاده وجعلها تحت حكمه، فلما وصلت الرسالة إلى "خورازمشاة" سار من نيسابور إلى الري حيث انضم إليه "قتلوغ" وقابلوا معاً قوات "طغرل الثالث" وهزموه وقُطع رأسه وحمل إلى الخليفة العباسي، وبقتل السلطان طغرل زالت دولة السلاجقة في إيران والعراق على يد الخوارزميين الذين حلوا محلهم، وأقرت الدولة العباسية هذا الوضع الجديد.

- **الدولة الأيوبية:**

من المعروف أن الضعف بدأ يدب في الدولة السلجوقية بعد وفاة السلطان ملكشاة، وظهر بعض القادة والأمراء المتمردين الذين حاولوا الوصول للسلطة، ومن بين هؤلاء القادة " أقسنقر" أحد المماليك الذي وصل إلى مكانة رفيعة في بلاط السلطان ملكشاة الذي لقبه "قسيم الدولة" وأقطعه حلب وأعمالها.

ولما بويع السلطان السلجوقي "تتش" عين " أقسنقر" نائباً عنه وضم إلى أملاكه مدينة تكريت، ولما توفي " أقسنقر" خلفه في إمارته ابنه "عماد الدين زنكي"، وظل يترقى في المناصب حتى ذاع صيته في عهد السلطان "محمود بن محمد ملكشاة" فأقطعه الموصل والجزيرة والشام، ثم جعله مشرفاً على ودليه فصار زنكي"أتابكاً" منذ ذلك الوقت ومن خواص السلطان.

لم يشارك عماد الدين زنكي في الحروب الداخلية التي قامت بين أمراء السلاجقة، وتوجه لمحاربة الصليبيين، ونجح عام 522هـ في احتلال مدينة حلب، ولما توفي عام 541هـ/1146م انقسمت أملاكه بين أولاده فتولى نور الدين محمود حلب، وتولى سيف الدين غازي الموصل وبلاد الجزيرة.

أما الأيوبيون فيعود نسبهم إلى "شادي الكردي " الذي كان والياً على قلعة تكريت أيام السلطان السلجوقي "مسعود بن ملكشاة"، فلما مات خلفه على ولايتها ابنه" نجم الدين أيوب" وانضم إليه في الولاية أسد الدين شيركوه "، ثم وقعت وحشه بين شادي وأحد الأمراء السلاجقة فلجأ نجم الدين أيوب وأبنه صلاح الدين إلى سيف الدين غازي في الموصل، ونظراً لشجاعة

نجم الدين والصفات الحميدة التي كان يتمتع بها عَيَنَهُ "سيف الدين غازي" والياً على بعلبك في الشام، أما شيركوه فقد اتصل بصاحب حلب "نور الدين محمود" فولاه على حمص وجعله مقدماً لعسكره.

وفي عام 569هـ/ 1173م توفي نور الدين فخلفه ابنه الصغير "الصالح إسماعيل " الذي لم يتجاوز عمره أحد عشر عاماً، ولكن هذا السلطان الطفل لم يستطع إدارة البلاد فتصدع البيت الزنكي، وطمع الصليبيون في الاستيلاء على أملاك السلطان الصغير، وإزاء ذلك كله توجه صلاح الدين إلى الشام وخلع "الصالح إسماعيل" وأصبحت مصر والشام تحت إمرته وابتدأ بذلك حكم الدولة الأيوبية وذلك سنة 577هـ=1181م.

وتفرغ صلاح الدين الأيوبي لقتال الصليبين في الشام ومصر، واستطاع الانتصار عليهم في معركة حطين، على أرض فلسطين سنة 583هـ=1187م، وحرر بيت المقدس منهم، وتوالت انتصاراته عليهم حتى حصرهم في الساحل الشامي، لكنه توفي قبل طردهم نهائياً من بلاد الشام، وانقسم أمراء البيت الأيوبي على أنفسهم بعد وفاة صلاح الدين الأيوبي، لكنهم بقوا على مسرح الأحداث كدولة لها فرعين الأول في مصر والثاني في الشام، وتوإلى سلاطينهم على الحكم في مصر والشام غير عابئين بالأخطار التي تهددهم بسبب فرقتهم وانقسامهم.

ولما جاءت الحلمة الصليبية السابعة إلى مصر سنة 647هـ=1249م واجهتها قوات "الملك الصالح نجم الدين أيوب" وفي أثناء المواجهة توفي "الملك الصالح" فأخفت زوجه"شجرة الدر"خبر موته عن الجيش حتى انتهت المعركة باندحار الصليبيين، فلما علم أمراء الجيش بالخبر بايعوا ولده "توارنشاة بن الملك الصالح" بالسلطنة، ثم قتلوه في شهر ربيع الآخر من سنة 648هـ/1250م وولوا بدلاً منه "عز الدين أبيك التركماني" وبذلك زالت الدولة الأيوبية في مصر وحلت محلها الدولة المملوكية.

أما الأيوبيون في بلاد الشام الذي كانوا تحت زعامة "الناصر يوسف" فلم يرضوا عن تصر المماليك فأعدوا قواتهم وتوجهوا لغزو مصر، والتقى الطرفان الأيوبي والمملوكي في معركة حاسمة قرب "بلبيس" بمصر سنة 648هـ/ 1251م هُزم فيها الملك الأيوبي وفر إلى بلاد الشام بعد أن خسر عدداً كبيراً من جنده، ولم يزل المماليك يطاردون بقايا الأيوبيين في الشام حتى قضوا عليها وأخضعوا بلاد الشام لحكمهم سنة 651هـ/1253م، ومنذ ذلك الوقت أخذ المماليك يعدون العدة لمواجهة الصليبين والتتار معاً.

المحاضرة الثامنة.

عنوان المحاضرة: الزحف المغولي على المشرق الاسلامي وتصدي المماليك له.

*** المغول**

التتار فرع من فروع الأمة التركية، ويزعم النسابون أن أحد ملوك الترك الأقدمين وأسمه "ألنجا خان" أنجب ولدين هما: تتار خان ومغل خان، ولذلك تنسب سلالتهما إلى أيهما فيقال التتار أو المغول، وكان المغول في أول أمرهم قبائل رحل تسعى وراء المرعى والعشب في شمال صحراء جوبي، ويعيشون على أكل لحوم الماشية وشرب لبنها، وكانوا يخضعون لحكم ملك الصين، على أن اسم المغول لم يكن مشهورا حتى القرن الرابع الهجري العاشر الميلادي، ولكنهم في أثناء حكم أحد زعمائهم وهو"بيسكونا" تخلصوا من حكم ملك الصين واستقلوا عنه وعاشوا في صحرائهم الواسعة.

كان المغول يدينون "بالشامانية" الديانة القديمة لهم التي تعترف بإله قدير، ولكنها لا تحترمه وتدعوا إلى عبادة آلهة متعددة، كالشمس والقمر، والحيوانات الشريرة المفترسة لأنها تمتاز بالقوة والشجاعة، أما المغول فقد كانوا يأكلون يعبدون الكواكب ويسجدون للشمس وعند طلوعها ولا يحرمون شيئاً، فكانوا يأكلون جميع الدواب حتى الكلاب والخنازير، وكانوا إباحيين لا يعرف الولد منهم أباه، كما كانوا يعبدون أرواح أجدادهم القدامى ويعتبرونها ذات سلطان عظيم على حياة أعقابهم.

- **جنكيز خان:**

في القرن الثاني عشر الميلادي كانت القبائل المغولية تدين بالطاعة والولاء والاحترام لزعيمها"يسوجاي"، وكان له ولد نابه فطين اسمه"تيموجين"، ويروي أن الطفل تيموجين رأى في المنام ذات ليلة أنه يحمل سيفاً بيده اليمنى وآخر بيده اليسرى، وأن يديه طالتا كثيراً حتى

بلغتا المشرق والمغرب، وعندما قص الطفل الرؤيا على والدته فسرتهما له بأنه سيتولى حكم عالم الشرق وعالم الغرب، وسيريق سيفه الدماء في المشرق والمغرب.

وفي عام 1175م توفي "يسوجاي" فتولى الحكم بعده ولده "تيموجين"، أمضى تيموجين السنين الأولى من حكمه في تدعيم جيشه وفي نزاع متصل مع أعدائه في الداخل فاستطاع أن يفرض سيطرته على قبيلته والقبائل المجاورة له، وتفرغ بعدها لغزواته الخارجية.

وفي سنة 1206م أقام "تيموجين" وليمة عظيمة حضرها أمراء بلاده ورؤساء القبائل، وأعلن خلالها أحد رجال الدين الشامان" الشامان الأعظم): أن السماء قد خلعت على "تيموجين" لقباً أرفع من ألقاب آبائه وأجداده وهو لقب"جنكيز خان" أي الملك صاحب القدرة والبطش، ومعنى هذا الكلام أنه أصبح يحكم البلاد دون منازع، وكان "جنكيزخان" عند ذلك في الثالثة والأربعين من عمره.

ثم أن "جنكيز خان "أراد أن ينظم العلاقات الاجتماعية بين أفراد رعيته فوضع لهم كتاب ديني يسيرون على هديه في معاملاتهم وأحكامهم، فوضع لهم الكتاب الذي أسماه "الياسق" أو"الياسه"،وقد روى المقريزي خلاصة ما ورد في هذا الياسق فقال: "مما شرعه جنكيز خان في الياسق قتل الزاني، ومن تعمد الكذب، أو السحر، أو تجسس على أحد أو دخل بين شخصين متخاصمين وأعان أحدهما على الآخر، ثم جاء فيه: من بال في الماء أو على الرماد قُتل، ومن أعطي بضاعة فخسر فيها قُتل بعد المرة الثالثة، ومن اطعم أسير قوم أوكساه بغير إذن قومه قُتل، ومن وجد عبداً هارباً أو أسيراً قد هرب ولم يرده على من كان في يده قُتل".

ومما شرعه جنكيز خان في الياسق أيضاً: أن تكتف قوائم الحيوان ويدلك قلبه إلى أن يموت ثم يؤكل لحمه، ومن ذبح حيواناً كذبيحة المسلمين ذبح، ومُنع أتباع الياسق من غسل ثيابهم حتى تبلى، ومما شرعه جنكيز خان في الياسق: أنه إذا أذنب أحد الأمراء ذنباً وبعث إليه الملك رسولاً لينفذ فيه عقابه وجب على الأمير أن يسرع في تنفيذ الطلب وهو خاضع ذليل، كما ألزم الأمراء أن لا يترددوا على غير الملك، ومن تردد على غيره قُتل ومن أحكام الياسق الأساسية احترام جميع الديانات وعدم التعصب لديانة معينة، ثم أن جنكيز خان أنشأ البريد ليقف على أخبار دولته بدقة.

- **غزوات جنكيز خان:**

قلنا في الفصل السابق أن أحد ولاة خوارزم شاة قتل التجار الذين أرسلهم جنكيز خان إلى بلاد الإسلام، ولما سمع الأخير بذلك أرسل رسالة تهديد لخوارزمشاة، ويطالبه فيها بتسليم الوالي المسلم الذي قتل التجار المغول، ولما لم تجد المفاوضات مع الخوارزميين نفعاً، أرسل جنكيزخان رسله إلى خوارزمشاة يهدده بالزحف إلى بلاده واحتلالها، فرد خوارزمشاة بقتل الرسل فتأزمت العلاقات بين الدولتين وأصبحت الحرب على وشك الحدوث.

وتوجس خوارزمشاة خيفة من تهديد المغول فأرسل جواسيسه إلى بلادهم ليستطلعوا الأمر ويقفوا على مدى قوة جنكيز خان،فعادوا بعد مدة وأخبروه عن كثرة جيش المغول، ووصفوا له شدة بأسهم وصبرهم على القتال، وأخبروه أيضاً أنهم يصنعون سلاحهم بأيديهم، فازداد قلق

خوارزمشاة من مهاجمة المغول لبلاده، فاستشار أحد فقهاء بلدته الذين يثق بهم، فأشار عليه أن يزحف بجيشه ويعسكر على الضفة الغربية لنهر سيحون الفاصل بين الدولة الخوارزمية وبلاد الترك، وبذلك يستطيع أن يقضي على قوات جنكيز خان التي ستضطر لقطع المسافة الطويلة والوعرة من بلادها حتى تعبر نهر سيحون، وما أن تصل الضفة الغربية للنهر حتى يكون قد أنهكها التعب فيهاجمها خوارزمشاة فيقضي عليها.

ولم يستمع خوارزم شاة إلى نصيحة الفقيه فعبر نهر سيحون وزحف نحو بلاد التركستان موطن المغول ووصلها بعد أربعة أشهر، ووقف على إحدى تجمعات المغول فلم يلق بها إلا النساء والشيوخ والأطفال وحامية بسيطة فهاجمها، وغنم ما كان عند أهلها وأراد العودة إلى بلاده، لكن جنكيز خان علم بالأمر فأرسل وراءه جيشا بقيادة أحد أبنائه فأدركته القوات المغولية قبل أن يدخل بلاده , وجرت معركة حامية بين الطرفين استمرت ثلاثة أيام كاملة، وقد وصف المعركة ابن الأثير فقال:"واشتد الأمر حتى أن أحدهم كان ينزل عن فرسه، ويقاتل قرنه راجلاً، ويتضاربون بالسكاكين، وجرى الدم على الأرض حتى صارت الخيل تنزلق من كثرته "، ولكن المعركة لم تسفر عن انتصار أحد الفريقين، فعاد المغول إلى مواقعهم، وعاد المسلمون إلى مدينة بخارى، لك خوارزمشاة بعد هذه المعركة أخذ يُعد العُدة لقتال المغول وعسكر بالقرب من مدينة "بلخ".

أما المغول فقد جمعوا قواتهم وزحفوا نحو بلاد الإسلام حتى وصلوا مدينة بخارى، وكان بها حامية خوارزمية مكونة من 20 ألف مقاتل قلما سمعوا بالزحف المغولي غادروا المدينة،"ودخلها جنكيز خان في شهر ذي الحجة من سنة 616هـ وقتل بعض الجند الذين رفضوا مغادرة المدينة واعتصموا بقلعتها، وأخرج الأهالي لا يملون سوى ثيابهم التي عليهم، ونهب المدينة، وأسر كثيراً من أهلها، ومزق التتار المصاحف، وأشعلوا النيران في المساجد والمدارس وغيرها من المباني، حتى أصبحت بخارى كأن لم تغن بالأمس ".

ثم زحف المغول بعد ذلك نحو مدينة "سمرقند" قصبة بلاد ما وراء النهر وحاصروها، وكان في المدينة 50 ألف مقاتل من جند خوارزم شاة، تصدوا للقوات المهاجمة وقاتلوها حتى ارتدت عن المدينة، ثم لاحقوها إلى خارج المدينة، لكن المغول كانوا قد أعدوا كميناً خارج المدينة، فما أن خرج الجيش المدافع منها حتى خرج المغول عليهم من خلفهم، وارتدت القوات المغولية المنهزمة نحو المدينة، وهكذا وقعت القوات الخوارزمية تحت مصيدة المغول حيث حاصروهم من الأمام والخلف ومنعوهم إلى مدينتهم، وأعملوا فيهم السيف حتى قضوا على معظمهم وفر الباقون لا يلوون على شيء ودخل المغول المدينة وأعملوا السيف في أهلها، ونهبوها، وعاثوا فيها فساداً، وأحرقوا مساجدها ومدارسها ومبانيها العامة، وكان ذلك في محرم من سنة 617هـ.

- **مصير خوارزم شاه:**

لما فتح التتار بخارى وسمرقند عولوا القبض على " خوارزم شاة"، فبعث جنكيز خان 20الفاً من خيره جنده لمطاردته، وقال لهم:"اطلبوه ولو تعلق بالسماء حتى تدركوه وتأخذوه"،

فسار هؤلاء الجند تجاه غرب خراسان، وأطلق عليهم اسم التتار المغربة تميزاً لهم عن سائر طوائف التتار، وعبروا نهر جيحون ويطاردونه، ولما علم جند خوارزم شاة بذلك تفرقوا عنه، وهرب خوارزم شاة مع بعض خاصته إلى "نيسابور"، فتبعه التتار فلما أحس بقربهم هرب إلى مدينة "مازندران"، ثم هرب إلى مدينة "الري" فتبعه المغول فلم يدركوه ولكنهم قبضوا على أمه ومعها كثير من الأموال والجواهر والأمتعة، وأرسلوها إلى مدينة "قرة قورم" عاصمة جنكيز خان في منغوليا وذلك سنة 620هـ= 1223م، أما خوارزم شاة فقد فر إلى "همذان" والمغول في أثره، وهكذا أصبح مطارداً يفر من بلد إلى بلد والمغول يتعقبونه حتى دخلوا أذربيجان، وصلوا بلاد الكرج ودخلوا عاصمتها "تفليس" سنة 617هـ وقتلوا من أهلها ما لا يحصى، ولكنهم كانوا مصرين على مطاردته والقبض عليه = وأخيراً وصل خوارزم شاة إلى بحر طبرستان واختفى في إحدى جزره ولم يُعثر له على أثر بعد ذلك، وخلفه في مواصلة الجهاد ضد المغول ابنه " جلال الدين منكبرتي" الذي عاد من الهند واسترد بعض البلاد التي خسرها والده أما زحف المغول.

- **المغول بعد جنكيز خان:**

في سنة 624هـ/1223م توفي "جنكيز خان " وكان في الستين من عمره، بعد أن أقام خلال ثلاثين سنة إمبراطورية حزبية إدارية، وكانت على غرار كل الدول التي أسسها البدو الرُحل حيث كانت كل السلطات تتركز في شخص الملك، والشعب ليس له إلا دفع الضرائب لدعم الجيش المقاتل.

خلف جنكيز خان ابنه "أجتاي" وجلس على العرش في "قرة قورم"، وبعد أن أحتل شمال الصين وأخضعها لنفوذه، تفرغ لقتال "جلال الدين منكبرتي " حاكم خوارزم، فأرسل له جيشاً مكوناً من 300 ألف مقاتل ليتتبع أثره ويقضي عليه، وقد صمد جلال الدين منكبرتي أمام المغول وقاتلهم في معارك كثيرة ينتصر عليهم تارة، وينتصرون عليه تارة أخرى، علماً أنه تحمل وحدة مسئولية قتال المغول، أما بقية أمراء الدول الإسلامية كالأيوبيين في مصر والشام، و أمراء السلاجقة، والخليفة العباسي فلم يحركوا ساكناً لمواجهة العدو وتركوا جلال الدين منكبرتي وحده في المعركة، وأخيراً تمكن المغول من هزيمة " جلال الدين منكبرتي" هزيمة ساحقة، وأبادوا معظم جيشه، وتفرق عنه من بقي منهم، وهرب جلال الدين منكبرتي مع بعض خاصته إلى بلاد الأكراد حيث قتله أحد الفلاحين هناك، وذلك سنة 638هـ/1231م، وبموته أسدل الستار على الدولة الخوارزمية التي ملأت العين والبصر، وحل المغول محلها.

وتوفي "أجتاي" سنة 1241م فخلفه ابنه "كيوك"، ولا يحفظ لنا التاريخ إلا القليل من أخباره وأخلاقه، فقد ألقى بزمام الدولة إلى وزرائه وأنصرف لحياته الخاصة، ولما مات خلفه أحد أمراء المغول واسمه "مانجوخان بن تولوي"، ولما توفي خلفه أخوه"كوبيلاي خان" سنة 655هـ/1257م، الذي أطلق عليه "الخان الأعظم" واتخذ الخان الأعظم مدينة "بكين" في الصين عاصمة له بدلاً من "قرة قورم"، وعين أخاه "هولاكو" نائباً له على البلاد الإسلامية

الواقعة غرب نهر سيحون وهي خراسان وبلاد فارس، وسوريا، وآسيا الصغرى وأمر بالمسير لغزو تلك البلاد وإخضاع من لم يخضع منها لحكم المغول.

*** سقوط بغداد:**

أعد هولاكو حملة عسكرية كبيرة وغادر "قرة قورم" باتجاهه الغرب، ولم يكد يصل إلى بلاد تركستان وما وراء النهر حتى قدم عليه أمراؤها وقدموا له فروض الطاعة والولاء، ثم سار إلى بلاد خراسان التي لم يبق فيها قوة تذكر ويحسب لها حساب إلا قوة الإسماعيلية أو الباطنية، فصم على الإيقاع بهم والقضاء عليهم، فأرسل كتباً إلى ملوك إيران يدعوهم فيها إلى مساعدته ضد الإسماعيلية، وجاء في الكتاب: "جئنا بأمر الخان الأعظم لتخريب حصون الإسماعيلية وقتل هذه الفئة ومحوها من الوجود، فإذا أتيتم إلينا ووافقتم على مشروعنا بتقديم المساعدة من الرجال والذخائر وآلات الحرب، فإني أعدكم بالبقاء في بلادكم آمنين، تتمتعون بقصوركم وجيوشكم، أما إذا أظهرتم العكس سرت إليكم بعد ختام مشروعي بعون الله وخبت بلادكم دون الالتفات إلى ما تقدمونه من الأعذار "، وعلى أثر وصول هذه الكتب إلى الملوك خرجوا لمقابلة هولاكو قادمين من العراق، وخراسان، وأذربيجان، وجورجيا، محملين ب الهدايا لهولاكو، فرحب بقدومهم ثم عبر نهر جيحون ونزل بحدائق مدينة "طوس"،وسار منها إلى قلاع طائفة الإسماعيلية ودارت بينه وبينهم عدة معارك انتهت بهزيمتهم وأسر زعيمهم "ركن الدين خورشاة" ثم قُتل.

وبعد انتصار هولاكو على الإسماعيلية وصل إلى مدينة "همذان" واتخذها مركزاً لقيادته،ومن هناك أرسل إلى الخليفة العباسي"المستعصم بالله" كتاباً يعاتبه فيه على عدم إمداده بالجند أثناء محاربته لطائفة الإسماعيلية، وطلب عدة مطالب **نذكر منها:**

أن يهدم الحصون ويردم الخنادق ويسلم بلاده لهولاكو.

أن يحضر الخليفة لمقابلة هولاكو أو يرسل وزيره سليمان شاة والدويدار "قائد الجيش" يحملان رسالته إليه.

وختم هولاكو رسالته للخليفة بقوه: إذا استمع الخليفة لهذا النصح تجنب حقده عليه وإلا عرض جيوشه للهزيمة أمام جيوش المغول التي قهرت جيوش خوارزم وإيران.

وقد أوفد الخليفة العالم الجليل"شرف الدين بن الجوزي" يحمل كتابه إلى هولاكو يدعوه فيه إلى الإقلاع عن غروره والعودة إلى بلاده، ومما جاء في الكتاب: لقد جعلت نفسك فوق العالم أجمع، وظننت أن أوامرك هي أوامر القضاء، كيف تطلب مني طلباً لا تستطيع تنفيذه؟ أيخيل إليك أنك بذكائك وقوة جيشك وشجاعتك ستأسر نجما من النجوم ؟، ثم أخذ الخليفة يذكره بمجد الخلافة، فقال: إن ملايين من الفرسان والرجالة على استعداد للقتال، وهم رهن إشارتي، حتى إذا حلت ساعة الانتقام جففوا مياه البحر، ثم ختم الخليفة كتابه بقوله: فما بالك بخنادق رعيتي وحصونهم ؟ فاسلك طريق الود وعد إلى خراسان، وإن كنت تريد الحرب فلا تتوان لحظة ولا تعتذر إذا عزمت، إن لي ألوفاً مؤلفة من الفرسان والرجالة على أتم استعداد لخوض غمار الحرب.

وقد حمل شرف الدين بن الجوزي ومن معه من الرسل مع هذه الرسالة بعض التحف والهدايا، فلم يهتم بها هولاكو، وأبدى امتعاضه من العبارات التي تضمنها كتاب الخليفة إليه، ثم علق على الكتاب قائلاً: "لقد ألقى الله في روع هؤلاء القوم مثل هذه الأوهام "، ورد على الخليفة برسالة يهدده فيها ويتوعده، ومما جاء فيها:"إنك تركت نهج آبائك، فاستعد للحرب، وانتظر جيشاً قوياً، ولو أن الشيطان وضع عراقيله أمام خططي لانتثر عليه بعون الله ".

ولما عاد رُسل الخليفة من عند هولاكو، أدرك الخليفة ما ينطوي عليه رد هولاكو من تهديد ووعيد، فاستطلع رأي وزيره "مؤيد الدين بن العلقمي" فأشار عليه بأن يتألف هولاكو ببذل الأموال والنفائس وقال: " ينبغي أن تدفعه ببذل المال، لأن الخزائن والدفائن تُجمع لوقاية عزة العرض وسلامة النفس، فيجب إعداد ألف حمل من النفائس، وألفاً من نجائب الإبل، وألفاً من الجياد العربية المجهزة بالآلات والمعدات، وينبغي إرسال التحف والهدايا في صحبة الرسل الكفاة الدهاة مع تقديم الاعتذار إلى هولاكو وجعل الخطبة والسكة باسمه ".

وقد مال الخليفة إلى قبول رأي ابن العلقمي، لكن بعض الأمراء المتحمسين اتهموا ابن العلقمي بالعمل لمصلحته الخاصة، وأرسلوا للخليفة أنهم مستعدون لدرء خطر المغول عن بلادهم والقتال حتى الموت،ولامس هذا الكلام هوى في نفس الخليفة فارتفعت معنوياته الخليفة، وأخذ يتجهز للقتال والدفاع عن بلاده.

أما هولاكو فقد دخل الحدود العراقية متوجهاً نحو بغداد وأخذت تسقط بيده المدن العراقية الواحدة تلو الأخرى دون مقاومة تذكر، ولما وصل هولاكو بجيشه إلى مدينة"دينور" على بُعد عشرين فرسخاً من بغداد لقيه "شرف الدين بن الجوزي" رسول الخليفة العباسي ومعه رسالة يهدد فيها هولاكو ثم يعده بدفع جزية سنوية له إن عاد إلى بلاده، غير أن هولاكو لم يعبأ بما جاء في كتاب الخليفة وقال للسفير ساخراً: "لقد قطعنا طريقاًُ طويلاً، فكيف نرجع دون أن نرى الخليفة ؟ إننا بعد أن نتشرف بالمثول بين يديه، وبعد أن نتحدث معه، سنسمع أمره ونعود مباشرة "، ثم تابع هولاكو المسير حتى أشرف على مدينة بغداد.

أمر هولاكو فرقة من جيشه بزعامة قائده "باجور" فاقتحم نهر دجلة وهاجم بغداد من جهتها الغربية، ودارت معركة حامية بين الفريقين، ورغم استبسال جند الخليفة بقياد الدويدار في الدفاع عن مدينتهم إلا أنهم هُزموا أمام قوة المغول الجبارة واستولى باجور جنده على الجانب الغربي من بغداد وذلك في المحرم من سنة 656هـ/1258م ونزلوا في أحياء المدينة على شاطئ نهر دجلة وسيطروا عليها وبينما كان الجند العباسي مشغولون بمقاتله المغول الذي اقتحموا بغداد من جهتها الغربية، انتهز هولاكو الفرصة وعسكر في الجهة الشرقية من بغداد، بجيش لا يحصى عدده حتى وصفه بعض المؤرخين بأنه " كالجراد المنتشر"، وقال ابن كثير:"إن هذا الجيش المغولي بلغ 200 ألف مقاتل "، وشرع جيش هولاكو في حصار المدينة من جميع الجهات، وبدأت قواته تستخدم جميع آلات الحصار للتضييق على أهل بغداد تمهيداً لاحتلالها، واستمات عسكر الخليفة في الدفاع عن عاصمتهم، واستمرت المقاومة حوالي 20 يماً، ثم استطاعت قوات هولاكو أن تقتحم أحد أسوار المدينة ودخلتها، وقضوا على معظم

عسكر الخليفة وأعملوا السيف في سكانها، ودمروا المباني التي وصلوا إليها، وأشعلوا النار في معالم المدينة التي سيطروا عليها.

ولما رأى الخليفة المستعصم أنه لا مفر من سيطرة المغول على كافة أرجاء المدينة عزم على التسليم، فأرسل رسوله "شرف الدين ابن الجوزي" إلى هولاكو بحمل إليه كثيراً من الهدايا الثمينة، ومعلناً رضاه بالتسليم ووقف القتال، فاشترط هولاكو أن يحضر الخليفة بين يديه.

وفي يوم الأحد الرابع من شهر صفر656 هـ/10فبراير 1258م خرج الخليفة لملاقاة هولاكو، وكان معه أولاده الثلاثة وهم: أبو العباس أحمد، وأبو الفضائل عبدالرحمن، وأبو المناقب مبارك، وثلاثة آلاف من القضاة، والفقهاء، والصوفية والأمراء، وأعيان المدينة، ولما اقترب الركب من هولاكو حُجبوا عن الخليفة ولم يبق معه إلا سبعة عشر شخصاً، ولما أحضر الخليفة بين يدي هولاكو كان الاضطراب بادياً عليه، فقال له هولاكو:"أنت المضيف ونحن الضيوف فاحضر ما يليق بنا "، فأمر الخليفة فأحضر لهولاكو ألفي ثوب وعشرة آلاف دينار وكثيراً من الجواهر والنفائس، فلم يلتفت إليها هولاكو ومنحها كلها لأمرائه، ثم قال للخليفة:إن الأموال التي تملكها على ظهر الأرض ظاهرة، وهي ملك عبيدنا، ولكن اذكر مالا تملكه من الدفائن، وما هي، وأين توجد؟ فاعترف الخليفة بوجود حوض مملوء بالذهب في ساحة القصر، فحفروا الأرض، فكان الحوض مليئاً بالذهب الأحمر، وكان كله من سبائك تزن الواحدة مئة مثقال، وقد أحصيت نساء القصر فكانت سبعمائة بين زوجة وسرية وخادمة.

ثم طلب هولاكو من الخليفة أن يأمر أهل بغداد بوضع سلاحهم والخروج من مدينتهم بحجة إجراء تعداد لهم، فأمر الخليفة بأن ينادى في الناس أن يلقوا سلاحهم ويخرجوا من بيوتهم خارج الأسوار، لكنهم ما أن خرجوا من المدينة حتى انقض عليهم جند المغول قتلا وذبحاً فأفنوا عدداً كبيراً منهم، ثم استقر هولاكو في قصر"المأمونية" شرق بغداد، وسمح لجنوده بنهب المدينة فعاثوا فيها الفساد أسبوعاً كاملاً، ونهبوا مساجدها وهدموها، وجردوا القصور من التحف النادرة الموجودة فيها، وأحرقوا المكتبات وما بها من كتب وبخاصة مكتبة بيت الحكمة "التي أنشأها الخليفة هارون الرشيد"، واستمر المغول يقتلون أهل بغداد ويقيمون المذابح مدة أربعين يوماً فقتلوا مئيراً من رجال العلم وعلماء الدين، وأئمة المساجد وحملة القران، فضلا عن آلاف المواطنين، فتعطلت المساجد والمدارس، وأصبحت المدينة قاعاً صفصفاً، وكان القتلى في الطرقات كأنها التلال.

ونودي بالأمان بعد أربعين يوماً فخرج من تحت الأرض الناس الذي اختفوا خوفاً من المغول في الحمامات،والمقابر والآبار كأنهم الموتى نبشت قبورهم، ولم بعرف بعضهم بعضا، ثم انتشر الوباء في المدينة فحصد الناي حصداً، وفسد الهواء وعم البلاء.

وقد انتهت هذه الحوادث المحزنة بقتل الخليفة المستعصم بالله وابنيه أبي العباس أحمد وأبي الفضائل عبد الرحمن، أُسر ابنه الأصغر مبارك، وأخواته الثلاث وقد قدر بعض المؤرخين عدد الأرواح التي أزهقها المغول في بغداد فقال بعضهم أنها بلغت 800 ألف، وقال آخرون بل 900 ألف، وقيل بلغت مليوناً و800ألف، عدا من غرق أو هرب، على أنه ما من شك أن هذه المدينة

فقدت معظم سكانها في هذه الكارثة، وضاعت الثروة الأدبية والفنية التي عُني الخلفاء العباسيون بجمعها منذ أن بنى الخليفة"أبو جعفر المنصور" مدينة بغداد واتخذها حاضرة لدولته.

وبسقوط بغداد زالت الدولة العباسية، زالت الخلافة التي عاش في ظلها العالم الإسلامي زهاء خمسة قرون، ولم تعد بغداد مركز الدولة الإسلامية، ومعين الثروة والرخاء، وكعبة العلماء.

ولكن المغول لم يتوقفوا عن هذا الحد، فقد دفعهم حقدهم على الإسلام وكراهيتهم له إلى استكمال خطتهم في مهاجمة أملاك الدولة العباسية في بلاد الشام ومصر، وآسيا الصغرى وغيره ا.

أما بقايا الحكام السلاجقة في آسيا الصغرى وفي بلاد الشام، فإنهم لما سمعوا بقوة المغول ووحشيتهم خافوهم خوافاً شديداً وأرسلوا إلى هولاكو يعلنون خضوعهم التام له، وكذلك فعل الملك الناصر يوسف الأيوبي صاحب حلب.

ومع ذلك فقد تقدم المغول إلى ناحية ديار بكر شمال بلاد الشام، ومنها إلى الجزيرة الفراتية، وتحالفوا مع الصليبين في أرمينيا، واشترك هولاكو مع "هيثوم" ملك أرمينيا الصليبي في تعقب القوى الإسلامية في بلاد الشام والقضاء عليها، فهاجما حلب سنة 1260م، ثم هاجما حمص وحماة، ثم سلمت دمشق لهما وساروا منها إلى فلسطين، وهنا سمع هولاكو أن الخان الأعظم "كوبيلاي خان" قد مات فعاد مسرعاً إلى " قرة قورم" تاركاً مسئولية إكمال فتوحات بلاد الشام لنائبة"كتبغا" الذي احتل معظم أراضي فلسطين وتطلع لفتح مصر والقضاء على دولة المماليك هناك.

وأرسل كتبغا رسالة تهديد ووعيد للمماليك حكام مصر، وطلب منهم تسليم البلاد والخضوع التام وإلا زحف إليهم وألحق بهم هزيمة ساحقة، ودخل بلادهم وفعل بها ما فعل بغيرها من البلدان التي فتحها من قبل.

رفض المماليك تهديد المغول لهم، ووحدوا قواهم، واستعدوا للحرب تحت قيادة السلطان المملوكي "المظفر قطز" الذي سار بجيشه من مصر إلى فلسطين والتقى مع المغول بقيادة كتبغا في معركة عين جالوت على أرض فلسطين عام 658هـ/1260م وكان النصر حليف المسلمين، ووقى الله مصر شر المغول، وكانت هذه المعركة بداية انحسار قوة المغول، إذ أصبحت حملاتهم العسكرية بعد ذلك عبارة عن هجمات خاطفة لا تلبث أن تعود من حيث أتت.

يعود الفضل في تكوين المماليك للسلطان الصالح نجم الدين أيوب الذي يبدو أنه أحس بفضل المماليك عليه في الوصول إلى دست السلطنة من ناحية، كما أحس بحاجته إلى جيش قوي من المماليك يسانده بعد أن لمس غدر الطوائف الأخرى من الجند المرتزقة كالأكراد والخوارزمية من ناحية أخرى، فدفعه كل ذلك إلى تكوين تلك الفرقة الجديدة.

أما عن السبب في تسمية هذه الفرقة بالبحرية فالمرجح أن ذلك يرجع إلى اختيار الصالح نجم الدين أيوب جزيرة الروضة في نهر النيل مركزا لهم، وكان معظم هؤلاء المماليك من الأتراك مجلوبين من بلاد القفجاق شمالي البحر الأسود ومن بلاد القوقاز قرب بحر قزوين. وقد

اجمع المؤرخين على أن الأتراك القفجاق امتازوا عن غيرهم من طوائف الترك بقوة البأس، فضلا عن الشجاعة النادرة، وبفضل هذه الصفات من جهة، والظروف الخارجية والداخلية التي أحاطت بمصر في أواخر العصر الأيوبي من جهة أخرى، تمكن المماليك من الاستئثار بحكم مصر، ولم يلبث أن توصل البحرية بالذات إلى السلطنة وظلوا يحكمون مصر نحو قرن وثلث (648- 784)وفي خلال هذه الفترة حكم 29 سلطانًا، استطاعوا فيها مواجهة المشاكل العديدة التي واجهت المسلمين في مصر والشام، سواء كانت هذه المشاكل خارجية من جانب الصليبيين والمغول، أو داخلية في صورة مؤامرات أو أزمات اقتصادية.

بعد زوال الدولة الأيوبية الذي تمثل بمقتل توران شاه نصب المماليك شجرة الدر سلطانة باعتبارها أرملة السلطان الصالح أيوب، وطلبوا من الأمراء الأيوبيين في الشام الاعتراف بسلطنتها. فرفض أيّوبيّو الشام هذا التنصيب، لأن ذلك معناه نهاية دولتهم في مصر، وأيضا لم يوافق الخليفة العباسي المستعصم بالله في بغداد الذي اعترض على ولاية امرأة. فتسلم السلطنة عز الدين أيبك المملوكي الذي تزوجها لكي يتمكن من الحكم. ولكن الأيوبيين لم يوافقوا على ذلك وتم إرسال جيش إلى مصر بقيادة صاحب حلب ودمشق الناصر يوسف لاحتلالها وتحريرها من المماليك، ولكنهم هُزموا أمام المماليك، وفرّوا هاربين إلى الشام مما مكن المماليك من تثبيت حكمهم في مصر.

دولة المماليك البحرية (648-922 هـ/ 1241-1715 م):

- **أبرز سلاطين المماليك البحرية:**

- **سيف الدين قطز:**

اسمه الأصلي محمود بن ممدود وهو من بيت مسلم ملكي، فهو ابن أخت جلال الدين الخوارزمي، والذي قاوم التتار فترة وانتصر عليهم ثم هُزِمَ منهم، وفرَّ إلى الهند، وعند فراره إلى الهند أمسك التتار بأسرته فقتلوا بعضهم واسترَقّوا بعضهم.

وكان محمود بن ممدود أحد أولئك الذين استرقَّهم التتار، وأطلقوا عليه اسمًا مغوليًّا هو قطز، وهي كلمة تعني الكلب الشرس، ويبدو أنه كانت تبدو عليه من صغره علامات القوة والبأس، ثم باعه التتار في أسواق الرقيق في دمشق واشتراه أحد الأيوبيين، وجاء به إلى مصر، ثم انتقل من سيد إلى غيره حتى انتهى إلى "عز الدين أيبك" من أمراء مماليك مصر. وتدرج في المناصب حتى صار قائدًا لجند أيبك، ثم قائدًا للجيوش عندما تولى "عز الدين أيبك" السلطنة مع شجرة الدر.

قام الملك عز الدين أيبك بتعيين قطز نائبا للسلطنة، وبعد أن قتل الملك المعز عز الدين أيبك على يد زوجته شجرة الدر، وقتلت من بعده زوجته شجر الدر على يد جواري الزوجة الأولى لأيبك، تولى الحكم السلطان الطفل المنصور نور الدين علي بن عز الدين أيبك، وتولى سيف الدين قطز الوصاية على السلطان الصغير الذي كان يبلغ من العمر خمسة عشر سنة فقط.

وجد قطز أن السلطان الطفل مشغول باللهو عن أمور الحكم، وأن بعض أمراء المماليك يستغلون ذلك في التدخل في أمور الحكم، وجاء ذلك مع قدوم رسل التتار يهددون مصر

بالاجتياح؛ فقام بعزله بعد موافقة العلماء، وأعلن نفسه سلطانًا على مصر في ذي القعدة 657هـ، أي قبل وصول هولاكو إلى حلب بأيام، ومنذ أن صعد قطز إلى كرسي الحكم وهو يَعُدُّ العدَّة للقاء التتار.

وسار القائد المظفر قطز في سبيل النصر على التتار، وخطا في ذلك خطوات مباركة، وأعد لذلك عدته، ويمكننا إيجاز تلك المجهودات في خطوات من أهمها ما يلي:

*** العفو العام:**

أصدر السلطان قطز قرارًا بالعفو العام "الفعلي" عن كل المماليك البحرية، واستطاع قطز أن يقنع خصومه من أمراء المماليك البحرية الذين كانوا قد هربوا إلى بلاد الشام، وعلى رأسهم بيبرس البندقداري بالعودة إلى الأراضي المصرية والانضواء تحت لوائه، متناسين ما بينهم من الخلافات، بعد أن ثبت لهم عجز أمراء الشام من البيت الأيوبي عن مقاومة المغول.

*** توحيد مصر والشام:**

حرص على التواصل مع الدولة الأيوبية، فقد كانت العلاقة بين المماليك والأيوبيين متوترة إلى حد كبير، بل أن الناصر يوسف الأيوبي أمير دمشق وحلب كان قد طلب من التتار بعد سقوط بغداد أن يعاونوه في غزو مصر، إلا أن سيف الدين قطز سعى لإذابة الخلافات بينه وبين أمراء الشام، وكان يسعى إلى الوحدة مع الشام أو على الأقل تحييد أمراء الشام؛ ليخلوا بينهم وبين التتار دون أن يطعنوه في ظهره.

ومن أجل ذلك تواصل سيف الدين قطز مع الملك الناصر الأيوبي، وعرض عليه أن يكون تابعًا للناصر، ثم أن قطز علم أن الناصر يوسف قد يتشكك في أمر الوحدة الكاملة أوفي أمر القدوم إلى مصر، فعرض عليه بإمداده بالمساعدة لحرب التتار، فتحققت المصلحة المشتركة في هزيمة التتار.

*** تأمين جبهة الصليبيين:**

أراد قطز قبل الشروع في مواجهة المغول أن يختبر الصليبيين على ساحل بلاد الشام، لمعرفة موقفهم من ذلك الصراع الذي أصبح محاذيًا لهم، لتخوفه من انضمام هؤلاء الصليبيين إلى المغول عند نشوب الحرب، وبناءً عليه توجهت سفارة مصرية إلى عكا تطلب من الصليبين السماح للجيوش الإسلامية باجتياز بلادهم وشراء ما تحتاجه من المؤن.

والواقع أن الصليبيين لم يخفوا مرارتهم وكراهيتهم وحقدهم للمغول بعد أن قام المغول بمهاجمة مدينة صيدا ونهبها، كما أنه لم تتوافر عندهم الثقة فيهم لما ارتكبوه من المذابح الجماعية، على حين أن الصليبيين اتصلوا بالحضارة الإسلامية وألفوها.

بل ونتيجة لذلك أبدوا أول الأمر استعدادهم لبذل المساعدة العسكرية للسلطان قطز إلا أن السلطان سيف الدين شكرهم حينما عرضوا عليه أن يسيروا معه نجدة واستحلفهم أن يكونوا لا له ولا عليه.

سار السلطان قطز بجيوشه بعد أن هيأها للجهاد، والتقى بالمغول، وكانوا تحت قيادة "كتبغا" في معركة فاصلة في صباح يوم الجمعة الموافق (25 رمضان 658هـ) عند عين جالوت من أرض فلسطين بين بيسان ونابلس، وانتصر المسلمون انتصارًا هائلًا.

وأعاد هذا الظفر الثقة في نفوس المسلمين بعدما ظن الناس أن المغول قوم لا يُقهرون، وكانت نقطة تحول في الصراع المغولي الإسلامي، فلأول مرة منذ وقت طويل يلقى المغول هزيمة ساحقة أوقفت زحفهم، وأنقذت العالم الإسلامي والحضارة الإنسانية من خطر محقق.

وكان من شأن هذا النصر أن فَرَّ المغول من دمشق وبقية بلاد الشام إلى ما وراء نهر الفرات، ودخل السلطان قطز دمشق في آخر شهر رمضان وأقام بقلعتها، وفي غضون أسابيع قليلة تمكن من السيطرة على سائر بلاد الشام، وأقيمت له الخطبة في مساجد المدن الكبرى حتى حلب ومدن الفرات في أعالي بلاد الشام، وتمكن من إعادة الأمن والاستقرار إلى ربوع البلاد، وبعد أن اطمأن إلى ما فعل قرر العودة إلى مصر في (26 من شوال 658هـ).

وبعد حياة عظيمة نصر فيها قطزُ الإسلامَ وأعلى كلمة الله، وبينما هو راجع إلى مصر، وثب عليه بعض الأمراء، فقُتل في 16ذي القعدة 658هـ، ولم يكمل سنة في السلطنة رحمه الله.

- **الظاهر بيبرس:**

بيبرس البندقداري، رابع سلاطين الدولة المملوكية، لقبه الملك الصالح أيوب في دمشق بلقب (ركن الدين)، وبعد وصول بيبرس للحكم لقب نفسه بالملك الظاهر.

قاد جيش المماليك في معركة المنصورة ضد الصليبيين في رمضان من عام 647 هـ، والتي تم فيها أسر الملك الفرنسي لويس التاسع في دار ابن لقمان، تولى بيبرس السلطنة في مصر بعد وفاة قطز.

- السياسة الداخلية:

*** ثورة علم الدين سنجر:**

عمد بيبرس على تصفية معارضيه الذين احتجوا على مقتل السلطان قطز ومنهم الأمير علم الدين سنجر الحلبي. وقد استنابه قطز بدمشق، والذي نادى بنفسه سلطانا على دمشق وأمر بالخطبة له، ثم أرسل إلى الأمراء بحلب وحماة بوجوب طاعته. وقد جرد بيبرس بحملة عسكرية ضده، وقد تمكنت تلك الحملة من القضاء عليه وإعادة دمشق تابعة إلى مصر في صفر 659 هـ.

*** القضاء على فكرة المناداة بالخلافة الفاطمية:**

تمكن الظاهر بيبرس أيضًا من القضاء على التمردات الفاطمية في القاهرة، والتي أثارها رجل يدعى الكوراني وهو فارسي الأصل من نيسابور، وكان يهدف إلى قلب نظام الحكم وإرجاع الفاطميين، وقد نتجت تلك الحركة إلى إعلان العصيان على بيبرس والمسير في شوارع القاهرة ليلًا ثم الهجوم على مخازن السلاح والاصطبلات وأخذ ما بها من السيوف والخيل، إلا أن الظاهر بيبرس تمكن بقواته الخاصة من الإحاطة بالمتمردين والقبض على جميع

زعمائهم ومنهم الكوراني، حيث أقر السلطان بصلبه على باب زويلة بالقاهرة، وبهذا انتهت جميع محاولات الفاطميين بالتمرد والعودة إلى سدة الحكم.

*** إحيائه الخلافة العباسية:**

أراد بيبرس أن يضفي لحكمه نوعا من الزعامة والنفوذ على البلاد الإسلامية ولكي يمنح دولته الفتية نوعا من الشرعية، عمد إلى إحياء الخلافة العباسية في القاهرة بعد الانتكاسة التي أصابتها في بغداد على يد المغول، وعليه فقد أرسل في طلب أحد أبناء البيت العباسي فوصل إلى القاهرة القاسم أحمد في رجب 659هـ، حيث قوبل بالتكريم والاحترام، وقد بايع بيبرس الخليفة على العمل بكتاب الله وسنة رسوله، فتبعه الجميع بالمبايعة ولقب الخليفة المستنصر بالله. غير أن الخلافة لم تتدخل في الشؤون المملوكية، حيث أن السلطة الفعلية في يد الظاهر بيبرس والمماليك من بعده.

*** ترميم القلاع وطرق الإمداد:**

عمد بيبرس إلى تأمين وصول قواته إلى بلاد الشام بالسيطرة على كل المدن والقلاع الممتدة على الطريق بين مصر والشام وجعلها تابعة له، والتفت أيضا إلى تحصين الأطراف والثغور وعمارة القلاع التي خربها المغول في الشام. وأخذ يزودها بالرجال والسلاح. كما عمل على تقوية الأسطول والجيش وأشرف بنفسه على بناء السفن الحربية في دور صناعتها. ولم يكتفي بهذا العمل لتأمين وصول قواته إلى الشام ومنع أي التفاف حولهم من الخلف، بل عمد أيضا إلى التحالف مع بعض القوى الخارجية ليتفرغ للصليبيين.

*** النهضة المعمارية والتعليمية:**

شهد عهده نهضة معمارية وتعليمية كبيرة حيث عمل على إنشاء العديد من المدارس بمصر ودمشق وتعرف المدرسة المصرية باسم المكتبة الظاهرية بدمشق عام 676 هـ، وتضم المدارس مكتبات ضخمة، كما أنشأ عام 665 هـ، جامعا عرف باسمه إلى اليوم في القاهرة. كما عمل بيبرس على إنشاء الجسور والقناطر والأسوار، وحفر الترع والخلجان، وأنشأ مقياس للنيل وغيرها العديد من الأعمال. ونظم البريد وخصص له الخيل، وبنى كثيرا من العمائر.

*** إصلاح الأماكن المقدسة:**

اهتم بيبرس بتجديد الجامع الأزهر فأعاد للأزهر رونقه، وأعاد خطبة الجمعة والدراسة إلى الجامع الأزهر بعد أن هجر طويلا، ونصب أربعة قضاة شرعيين، واحدا من كل مذهب من مذاهب السنة الأربعة بعد أن كان القضاء مقتصرا على قاضي قضاة شافعي. وفي خارج مصر قام بعدد من الإصلاحات في الحرم النبوي بالمدينة ، وقام بتجديد مسجد إبراهيم عليه السلام في الخليل، وزار بيت المقدس وقام بتجديد ما قد تهدم من قبة الصخرة. وعمل على إقامة دار للعدل للفصل في القضايا والنظر في المظالم.

حروبه مع الصليبيين:

بدأ بيبرس حربه مع الصليبيين بمهاجمته إقليم الجليل، ثم الهجوم على عكا عام 662هـ، ولكنه لم يتمكن من اقتحامها لحصانتها وكثرة من بها من الصليبيين، فتركها وهاجم بالشهر

التالي قيسارية وعثليث، وفي عام663هـ نزل بيبرس بقوات ضخمة إلى غزة ومن هناك إلى قيسارية ففتحها، ثم تقدم صوب يافا فدخلها بغير قتال، لأن الصليبيين فروا منها هاربين، ثم سار نحو عثليث وحررها، وقد كانت بأيدي الصليبيين منذ 614هـ، ثم اتجه صوب أرسوف وضرب عليها حصارًا شديدًا استمر 40 يومًا، استسلمت بعده المدينة.

عاود بيبرس الكرة على الصليبيين بعد انتهاء الشتاء، وبدأ عمله أوائل صيف 664هـ. حيث بدأ بمدينة صفد (مقر الداوية) وتمكن من تحريرها، ثم حرر هونين وتبين والرملة، وسقطت يبنة دون قتال واستولى على القليعة وعرقة، وبذلك تمت السيطرة على الطريق المؤدي إلى طرابلس من البقاع. نتيجة لتلك الانتصارات ضعفت معنويات الصليبيين في الشام وسارع البعض إليه يطلبون وده ورضاه مقابل تنازلهم عن نصف غلات المناطق التي تحت سيطرتهم.

واختتمت فتوحاته بفتح أنطاكية، والتي كانت تعد الحصن الحصين للصليبيين فحقق انتصارًا باهرًا بفتحه لهذه المدينة، كما حقق انتصارات عديدة على المغول في موقعة البيرة وحران، ورد هجمات المغول المتتابعة على بلاده، إلى أن قضى عليهم نهائياً عند بلدة أبلستين وذلك في عام 675هـ، كما عمل على تأديب هيثوم ملك أرمينية الصغرى لمساعدته المغول في حربهم للمسلمين سنة 664هـ. وبذلك حقق بيبرس ما كان يبتغيه من تأمين لجبهته الخارجية وحدود دولته، وقد دام حكمه حوالي سبعة عشر عامًا.

وفاته: توفي يوم27محرم 676 هـ،عقب وصوله من بلاد الروم إلى دمشق.

الأشرف خليل:

هوخليل ابن السلطان المنصور قلاوون، جلس على تخت الملك بعد موت والده سنة 689هـ. وهوثامن سلاطين المماليك.

*** فتح عكا والساحل:**

سار الأشرف على نهج أبيه في سياسته الخارجية، فعزم منذ توليه السلطنة على حرب الصليبيين والعمل على طرد بقاياهم من بلاد الشام، وتحرير المناطق التي مابرحت في حوزتهم، وأعد للأمر عدته، ففي غرة ربيع الأول سنة 690هـ بعث السلطان بالبريد من القاهرة إلى أمراء الشام يدعوهم إلى الاستعداد لحصار عكا فجمع العساكر من الشام ومصر.

وخرج السلطان الأشرف بجيوشه من القاهرة في الثالث من ربيع الأول، ولحق به من جند الشام ومتطوعة الإسلام أممٌ عظيمة حتى وصلت الجيوش إلى عكا وضربت على أسوارها خمسة عشر منجنيقاً كبيراً وبدأ الحصار، فلم تصمد أمامه طويلاً على مناعتها والمعونات التي وصلتها بحراً من جزيرة قبرص، واستولى جند الإسلام على المدينة، وغنموا الأموال وأسروا الهاربين من الصليبيين.

وكان فتح عكا هو النصر العظيم الذي آذن بزوال الاحتلال الصليبي نهائياً إذ لم يمض بعده غير قليل حتى سلم صليبيو صور وصيدا وبيروت وعثليث وإنطرسوس، ومحا الله بسيوف الأشرف خليل وجنده الصليبيين من الشام وتطهرت منهم ديار المسلمين تماماً، وبعد سقوط عكا تساقطت المدن المحتلة الأخرى واحدة واحدة من دون مقاومة تذكر، فاستسلمت صيدا وصور

وعتليت وجبيل وحيفا وطرطوس وبيروت، وانتقل من فيها من الصليبيين إلى قبرص، وألزم الملك الأشرف من بقي منهم في تلك المدن دفع الجزية، وأمر بهدم الحصون التي تحميها خشية معاودتهم. ولم يبق في يد الفرنجة في الشام إلا جزيرة أرواد قبالة ساحل طرطوس.

تحول الأشرف بعد تحرير الشام من الفرنجة لقتال المغول في الجزيرة الفراتية والعراق، فقصد قلعة الروم على الفرات في رجب سنة 691هـ، فاحتلها بعد حصار دام ثلاثين يوماً، وأسر أميرها ورؤوس أصحابه، وغنم المسلمون منها شيئاً كثيراً.

ولما شعر ملك أرمينية هيثوم الثاني بقوة موقف الملك الأشرف خليل، تخلى له بعد عام من ذلك التاريخ عن قلاع بَهَسْنا ومرعش وتل حمدون التي تتحكم بالطرق المؤدية إلى حلب، وبعد أن رتب الأمور في الشام عاد الملك الأشرف خليل إلى مصر.

ودخل السلطان الأشرف خليل دمشق ومكث بها حتى اطمأن على زوال الخطر نهائياً ثم قفل راجعاً إلى القاهرة في أواخر رجب فدخلها في تاسع شعبان 690هـ.

*** فتح قلعة الروم:**

واستمرت رحلة جهاد الأشرف خليل، فخرج بالجيوش قاصداً حلب ومنها إلى قلعة الروم وضرب عليها حصاراً عظيماً استخدم فيه نحو ثلاثين منجنيقاً، حتى افتتحها عنوة في رجب 691هـ، ودخل السلطان الأشرف دمشق منتصراً في 19 شعبان، سائقاً الأسرى ومن بينهم ملك قلعة الروم، وفي خضم ذلك النصر العظيم بعث السلطان بحملتين إلى كسروان والخزر لتأديبهم إثر ممالئتهم الفرنج على المسلمين.

*** غزو بلاد سيس:**

في جمادى الأولى 692هـ خرج السلطان بجيوشه من مصر إلى الشام قاصداً فتح قلعة سيس، فدخل دمشق في 9 جمادى الآخرة، فلما تهيأ للغزوإذا بصاحب سيس يرسل رسله يطلبون الصلح، واتفق الطرفان على أن يتسلم رسل السلطان من صاحب سيس ثلاث قلاع هي بهسنا ومرعش وتل حمدون، ففرح الناس بذلك فرحاً عظيماً، إذ كانت هذه القلاع مصدر أذىً للمسلمين في الماضي.وقفل السلطان عائداً إلى القاهرة في أواخر رجب سنة 692هـ.

مقتل السلطان:

أدت سياسة الأشرف خليل الداخلية وتقليصه نفوذ كبار رجال دولته، إلى إثارة نقمة عدد كبير من الأمراء المماليك، فتآمروا عليه وقتلوه في 693هـ بعد حكم دام ثلاث سنوات.

وقامت سنة 784هـ، دولة المماليك الثانية المعروفة بالجراكسة، وسبب قيامها أن الصالح حاجي بن الأشرف شعبان بويع له وعمره لا يتجاوز الست سنوات فثارت في أول حكمه عربان بلاد البحيرة ونهبوا البلاد فجرد عليهم برقوق جيش لمحاربتهم، وبعد الانتصار عليهم جمع برقوق الخليفة المتوكل على الله والقضاة وأخبرهم بالحالة التعسة التي وصلت إليها البلاد واختلال الأمن، وأنه إذا لم تسلم البلاد لسلطان قوي ساءت الحالة أكثر مما هي عليه، وبعد أن تداول المذكورون في الأمر طويلاً قرروا خلع الملك الصالح ومبايعة الأتابكي برقوق أول دولة المماليك الثانية المعروفة بالجراكسة أو البرجية أو مماليك الحصن، وهم شراكسة اشتراهم

السلطان قلاوون لتدعيم حكمه، وتم له ما أراد إلى أن استولوا هم على الحكم من أحفاده الذين جاءوا بعده. وسمى المماليك البرجية بهذا الاسم لأن السلطان قلاوون أسكنهم في أبراج القلعة وتدربوا فيها. وبدأ حكمهم بالظاهر برقوق. وانتهى بالأشرف قنصوه الغوري الذي قتله العثمانيون في مرج دابق سنة 922هـ بعده أصبحت مصر ولاية عثمانية.

ومن أبرز سلاطين المماليك البرجية الخمسة والعشرين والذين امتازوا بالقوة: الظاهر برقوق، والناصر فرج، والمؤيد شيخ، والأشرف برسباى، والظاهر جقمق، والأشرف إينال، والظاهر خشقدم، والأشرف قايتباى، وقانصوه الغورى.

الخـاتمـة

استمرت الخلافة العباسية قائمة في العراق من 132 هـ/749 م إلى 656 هـ-1258 م حينما سقطت على يد المغول بقيادة هولاكو ابن جنكيز خان . ورغم أن الأسرة العباسية كانت عربية هاشمية إلى أنها اعتمدت على العنصر الفارسي والتركي مما ميزها عن الدولة العربية في عهدي رسول الله صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين ،والدولة العربية الأموية ،ومن أهم مميزات الدولة العباسية:

1- الاعتماد على الموالي الذين ظهروا في أواخر العهد الأموي ،وكانوا مستاءين من التمييز الذي مورس ضدهم وخاصة منهم الفرس ،والذين تشيعوا –نتيجة ذلك- لآل البيت ،ودعموا الدعوة العباسية وناصروها ،بل وقامت على أكتافهم ،وخاصة أهل خرسان.
2- الاعتماد على نظرية الامامة بالاعتماد على فكرة أحقية آل البيت في الخلافة ،فعملوا على الاستفادة من التعاطف الذي لقيه العلويون على أيدي بني أمية وعمالهم ،وهذا ما دفعهم إلى الاستئثار بالسلطان والنفوذ ،اعتبار خلفائهم أئمة كلمتهم هي العليا.
3- انتشارالزندقة واللهو إذ اتصف المجتمع العباسي بحياة اللهو والتمتع بالملذات والتأنق في الملبس ،واقتناء أفخم الأثاث ،والإقبال على عادات الفرس بعقد مجالس الغناء الرقص والشرب ،وأدى الابتعاد عن تعاليم الاسلام الصحيحة إلى ظهور حركات الزندقة وحتى الالحاد ،وذلك رغم محاربة العباسيين لها ،وراح نتيجة ذلك العديد من السياسيين والشعراء والفلاسفة ضحية لها.
4- كثرة الثورات والفتن الداخلية ومنها ثورة العلويين وحركات الراوندية والمسلمية ،وحركات الخوارج في الجزيرة العربية وبلاد المغرب الاسلامي ،وثورة الزنج في البصرة ،هذا فضلا عن الحركات الانفصالية والدول التي استقلت عنها والتي ذكرنها خلال المحاضرات.
5- الازدهار الحضاري حيث سمحت حرية التفكير بانتشار العلوم التجريبية ،وتطورت الدراسات اللغوية والفلسفية ،واكتسبت العلوم الاسلامية صفة الابتكار والأصالة ،كما

ازدهرت التجارة كثيرا على العهد العباسي بوصول التجار المسلمين إلى مشارق الأرض ومغاربها ،فانتعش المجتمع العباسي وساده الرخاء.

6- تغيير حركة الفتوحات حيث ركز العباسيون على مد رقعة الدولة الاسلامية نحو الشرق حيث اقليم السند وتركستان ،وقد ساعدت الحركة التجارية والسطول العباسي على نشر الاسلام في جزر الهند الشرقية وأندونيسا والصين وحنوب شرق أسيا ،فكان توسعهم حضاريا بنشر الدين الإسلامي في هذه الربوع ،ومد النفوذ السياسي العباسي إليها.